سنوات في قلعة الخطيئة

الفصل الثاني

حكايات من بلاد ومهرجانات

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة عامة

قالوا قديماً في السفر سبع فوائد لكل الناس ولكن للصحفي في السفر عشرات الفوائد، ففيها يقابل ناساً غير الناس، ويرى أرضاً غير الأرض، وثقافة غير الثقافة التي يعرفها، في السفر حركة بين التاريخ والجغرافيا، وكم تحركت بينهما فقد زرت الشرق والغرب، والشمال والجنوب.. زرت بلاد الكاوبوي من شرقها إلى غربها ومن شمالها في كندا إلى جنوبها في المكسيك.. البلاد التي تركب الحمير مثل ريف مصر ولكن حمير المكسيك مزينة بالكرانيش، ودعوني إليها لأني سائحة، تصوروا أن ركوبها سيكون تجربة فريدة بالنسبة لي ولكني رفضت، فما أكثرها في بلادي.

زرت بلادًا تركب الأفيال، ووقفت أمام «تاج محل» أسطورة الحب، والخلود، وذهبت إلى بانجلادش الفقيرة الصابرة وباكستان الغنية الممزقة، وكثير من عواصم أوربا السيدة العجوز الوقور، وبلاد مهند، أما عالمنا العربي فما تركت منه بلدًا إلا وزرته، ووقعت في هوى بلاد وأهلها وكرهت بلادًا وما عدت إليها.. ولكن في النهاية يظل السفر مهماً.. كبرنا أو هرمنا، رحلة في التاريخ والجغرافيا فتعالوا معي إليها حتى وإن لخصتها في مجرد كلام على ورق.

obeikan.com

رحلة إلى بلاد الورد والعسل والزيادي

يحكي عنها أهلها فيقولون إنها بلاد ليست كأي بلاد، فالأسطورة تقول إن الله سبحانه وتعالى قد أنشأ الأرض وقسمها بين الشعوب فأعطى كل شعب قطعة أرض يسكنها ولم يبق شعب بلا أرض إلا أهل هذه البلاد، فسألوا الله أين أرضنا التي سنسكنها؟ وقتها عرف الله أنه نسيهم وأنهم شعب بلا أرض ولم يكن هناك من حل إلى أن أتى الله بقطعة صغيرة من الجنة وألقى بها على الأرض فأسكنها هذا الشعب.

هكذا يحكي أهل بلغاريا عن نشأة بلادهم التي يرونها قطعة من الجنة على الأرض، وهي بالفعل كذلك، فهي تقع في جنوب القارة الأوربية تحدها اليونان من الغرب وتركيا من الجنوب، فقد منحت الطبيعة بلغاريا أجمل هداياها.. شواطئ جميلة وتطل على البحر الأسود وأرض خصبة وغابات وجبال تكسوها الخضرة صيفاً والجليد شتاءً.

وبلغاريا التي كانت في يوم ما دولة تابعة للكتلة الشرقية يحكمها الحزب الشيوعي، تحولت بعد سقوط حائط برلين إلى سياسة السوق المفتوحة، بل إنها بلاد حين تزورها تشعر أنها محتلة بشركة الكوكاكولا والماكدونالدز المنتشرة في كل ركن وإعلانات الأفلام الأمريكية التي تؤكد لك أنها انتقلت من بلاد تعشق الشيوعية إلى عشيقة لأمريكا تنام في سريرها، وتأكل طعامها وتتعاطى ثقافتها ولكنها لا تتكلم بلسانها بعد، فقليل من أهل بلغاريا هم الذين يتحدثون الإنجليزية بل أغلبهم يجيد اللغة الروسية والألمانية. وبلغاريا كدولة تنتظر عام ٢٠٠٧ على الإطلاق، فالشعب فقير أغلبه مزارعون كان المستوى الاقتصادي في دولة شيوعية يناسبهم، ولكن منذ سقوط الحائط بدأت الحياة تزداد غلاء

والناس تئن تحت وطأة الفقر والبطالة، فمتوسط دخل الفرد في بلغاريا ٣٠٠ ليفة، وهي عملتهم حتى الآن هذا المبلغ كان يسمح بحياة كريمة إلى حد ما في زمن مضى أما الآن فإن أهل بلغاريا يصارعون الأيام وصعوبة العيش خصوصاً إذا عرفت أن إيجار الشقق هناك يبدأ من ٦٠ إلى ٢٠٠ ليفة، هذا غير كلفة التدفئة والتي تتكلف حوالي ٢٥٠ ليفة شهرياً في المتوسط.

وإن كانت الطبيعة - كما سبق وقلت - منحّت بلغاريا هداياها وتحتلها الآن الكوكاكولا إلا أن مباني كل المدن البلغارية، بداية من صوفيا العاصمة إلى أقصي الجنوب تعلن بصوت مرتفع هذه بلاد كانت في يوم ما شيوعية فكل بيوتها ومبانيها تبدو مثل بلوكات المساكن الشعبية لدينا في مصر، بفارق واحد أن غسيلهم منشور داخل البلكونات وعلى الشبابيك أصص الزرع والورد بدلاً من دولة الكراكيب التي تحتل شرفاتنا.

وبسبب الغلاء والبطالة يهاجر كثير من شباب بلغاريا إلى دول الوطن الأكبر، إلى أوربا الرأسمالية حتى إن إحدى الشابات البلغاريات التي قابلتها قالت لي إن أكثر من ٩٠٪ من زملائها في الجامعة هاجروا إلى بلاد أوربية أخري، وهذا بالتالي يؤثر أكثر وأكثر على الكثافة السكانية بالنقصان، فتعداد السكان يبلغ ٨ ملايين فقط في بلاد لديها إمكانات كثيرة ولكن أيضاً لديها كثير من الفساد حتى إنك تجد عدداً كبيراً من التحذيرات في اللحظة التي تطأ فيها قدمك مطار صوفيا مثل؛ لا ترتدي ذهباً ولا تمشي بمبلغ كبير من المال وعليك بالحذر الشديد من الغجر والمافيا المنتشرين في هذه البلاد، فبلغاريا المورد الأكبر ومعقل الغجر داخل أوربا وتستطيع أن تتعرف إليهم بسهولة في الشوارع، فلونهم شديد السمرة وملابسهم عادة رثة ويحترفون الغناء والشحاذة في الشوارع، وحين كنت أجلس على أحد المقاهي مع صحفية ومذيعة بلغارية، أتت إلينا إحدى فتيات الغجر لتطلب مالاً ووجدت رفيقتي تشعر بالحر وتنهرها فضحكت وقلت لها وكأنني في ميدان سيدنا الحسين أو أحد شوارع القاهرة فلا داعي للحرج، ولكن الفارق بين الشحاذين لديهم ولدينا أن بعضهم يكوّن فرقاً موسيقية ويعزف في الشوارع مما يذكرك بشخصية على الأليت التي ابتكرها الفنان مصطفى حسين، فهم شحاذون لكن بشياكة ودون إلحاح. أما

المافيا فإن لها عصابات منظمة وأفرعاً كبيرة في بلغاريا، وهذا إحدى النتائج السلبية لسقوط الحائط وتحول البلاد إلى سياسة مختلفة، ورغم كل هذه التحذيرات والخوف الذي صاحبها فإني قضيت أيامي في بلغاريا دون حادثة واحدة، مما جعل البعض يقول لي إنني محظوظة، وإن كنت كذلك فحظي مع بلغاريا لم يكن إلا في هذا الشأن، أما بقية رحلتي فأفضل عنوان لوقائعها أنها رحلة الشقاء والحب والذي سيأتي ذكره بعد قليل، ولكن دعوني الآن أكمل لكم حكاية هذا البلد.

لم تهب الطبيعة فحسب العطايا لهذه البلاد.. ولكنها وهبتها أجمل نساء أوربا فقد سرت في تلك البلاد أتلفت حولي أشاهد كم جمال أشفقت منه على الرجال المصريين الذين كانوا يصحبونني في رحلتي، حتى إنني في لحظة تذكرت قول عبدالفتاح القصري في فيلم (ابن حميدو) حين قال عن توفيق الدقن دا أنا نفسي أتمناه، فصرخت وقلت لهم ضاحكة كان الله في عونكم ده أنا نفسي أتمناهن، ولم أجد كامرأة قدرة على أن أقول كلمة «بس أصلهم أيه حاجة» فكل من شاهدتهن بالعشرات والمئات والآلاف شابات يتميزن بجمال مبهر وهنا لا أقصد جمال الشعر الأصفر والعيون الزرقاء أو الخضراء ولكنه جمال سبحان من صوّر وقوام ممشوق، وفوق هذا وذاك أناقة باريسية تغيظ أية امرأة، فكل النساء يرتدين أحدث الموضات بداية من البلوزة القصيرة تحت الصدر والجيب التي تشبه المناديل أو البنطلون القصير، والأحذية ذات الكعب الرفيع جداً والمدبب الطويل جداً من الأمام، أما الألوان فهي كل ألوان الصيف المبهجة مثل الأخضر الفسفوري والروز بدرجاته وصولاً إلى الفوشيا والتركواز، ولا تهمل هناك النساء الإكسسوار الذي توجد له محلات كبيرة جداً تباع فيه أنواع الإكسسوار البلاستيك حتى الفضي والذهبي والمثير أننا دائماً نعرف المرأة الأوروبية بأنها امرأة بسيطة ولكني في بلغاريا كنت أسير وكأنني في ديفيليه كل النساء فيه عارضات أزياء من الرأس حتى أخمص القدم، وأما عن شعر النساء فحدث ولا حرج فلا توجد فيهم سيدة تشبه الأخرى فدرجات ألوان الشعر تبدأ من الأحمر الناري مروراً بالماشات ذات الألوان المختلفة مثل الأحمر والأصفر والفضي وكله في رأس واحد، وطبعاً كامرأة لم أستطع مقاومة الرؤوس البلغارية فهذا كان أكبر طموح لي فذهبت إلى كوافيرة بلغارية دفعت لديها ٢٥ ليفة أي ما يوازي ١٠٠ جنيه علها تجعلني مثلهم ولكنها قصت

لي شعري وبالفعل بدا جميلا أو على الأقل مختلفا ولكني أبداً ما أصبحت مثلهم وقالت لي المذيعة البلغارية التي اصطحبتني إلى الكوفير إن أفضل صبغات وموضات الشعر تخرج من بلغاريا لتغزو أوربا.

وتذكرت وأنا أري كل هذه النساء الجميلات المثل الشعبي المصري (يدي البخت لمكتكتين الرؤوس) أي للقبيحات فأنت لا تملك إلا أن تشعر بالغيظ إذا عرفت أن هؤلاء الجميلات جداً قليلات الحظ جداً فنسبة ازواج قليلة جداً ونسبة الطلاق كبيرة جداً، وفي الحالتين المرأة هي المسئولة عن تدبير شئون الحياة وتربية الأبناء، فالرجل في تلك البلاد يستخدم كذكر لإبقاء النوع ثم يختفي ولا يتحمل المسئولية وحتى القانون هناك ينصف الرجل غير المسئول فالمرأة إذا ذهبت للمحكمة تطلب نفقة لأبنائها تحكم لها المحكمة بنفقة تتراوح ما بين ٤٠ إلى ٨٠ ليفة كأقصي حد وهو ما يساوي حوالي ١٦٠ جنيهاً مصرياً كحد أدنى و ٣٢٠ جنيهاً كحد أقصى مهما يكن عدد الأبناء ومهما يكن المستوي الاقتصادي للأب فالنفقة محددة، مما يجعل المرأة المصرية تشعر بالتميز وتحمد الله على ما حباها من قانون منصف حتى لو كانت تفتقد كثيراً من جمال البلغاريات!!

ولأن المرأة في بلغاريا تكاد تكون العائل الأول للأسرة دون منازع فهي تعمل في كل الأعمال حتى أنك في لحظات تشعر أنك في بلاد هجرها الرجال وسكنتها النساء الجميلات والأطفال.

بلاد الورد والعسل والزبادي

يعتبر الزبادي البلغاري أشهر زبادي في العالم وهنا أقصد الزبادي التقليدي الذي يصنعه الفلاحون في بيوتهم ويبيعونه ويعتبر البلغاريون أن دخول الشركات الكبري في إنتاج الزبادي أفقدهم تميز طعمه ولهذا فحين نصحني أحد البلغار بتذوق الزبادي قال لا تشتريه من السوبر ماركت ابحثي عن محال صغيرة تصنعه في بيوت الفلاحين وتذوقيه، فوقتها ستعرفين قيمة الزبادي البلغاري وقد استمعت لنصيحته وبالفعل وجدته مختلفاً شهي الطعم.

وادي الورود أو «Rose Valley» هو اسم مدينة تقع في جنوب بلغاريا وهي اسم على مسمى ففيها لا تُزرع إلا الورود بكل ألوانها، وهي التي تمد أوربا وغيرها من دول

العالم برائحة الورد التي تستخدم في العطور ومستحضرات التجميل، ولهذا تجد أهم التذكارات الموجودة في بلغاريا هي قارورة خشبية مكتوب عليها اسم الدولة ويداخلها زجاجة صغيرة تحمل عطر الورد الذي أصبح صفة لبلاد البلغار. ويقرن إنتاج العسل بزراعة الورد بشكل خاص، لهذا فإن أكبر عبوات للعسل رأيتها في حياتي كانت تلك العبوات الموجودة على أرفف السوبر ماركت في صوفيا وغيرها من المدن مع اختلاف أنواعها، فهذا عسل الورد وذاك عسل عباد الشمس وأنواع أخرى كثيرة من الصعب على ابنة مدينة مثلي أن تفرق بينها، ولم يكن من الممكن مهما أبعد أن أنسى حبيبتي الأولى والأخيرة السينما فكانت عيناي كلما ذهبتا تبحثان عن أفيش في الشوارع لسينما تتحدث بلغة لا أعرفها، ولكن بالتأكيد أستطيع أن أتذوقها ولكن لعجبي كما كانت تحاصرني الكوكاكولا كانت تحاصرني أفيشات الأفلام الأمريكية، وحين لم أجد سواها سألت مرافقي البلغاري فحكى لي أن بلغاريا كانت تنتج عددا كبيراً من الأفلام في كل عام، ولديها مدينة للسينما تعتبر من أكبر المدن السينمائية التي تحوي ستديوهات ومعامل وغيرها من لوازم إنتاج الأفلام السينمائية، ولكن مع سوء الظروف الاقتصادية انهارت صناعة السينما ولم تعد تنتج بلغاريا أكثر من فيلمين كل عام على أكثر تقدير.

وغزت السينما الأمريكية الأراضي البلغارية كغزوها لبقية انحاء المعمورة، بل لم تكتف بذلك ولكن استخدمت هوليوود مدينة السينما في بلغاريا في تصوير أفلامها هناك، حيث إن تكلفة إنتاج الفيلم في بلغاريا مازال أقل كثيراً من تكلفة إنتاجه في هوليوود، وإلى جانب السينما الأمريكية تجد قليلاً من الأفلام الفرنسية والألمانية والروسية، ولكن يظل العم سام وأفلامه ومشروباته وطعامه هو الوريث غير الشرعي لكل ما هو موجود في بلغاريا.

عمرو دياب معشوق شباب بلغاريا

كان آخر ما يمكن أن أتوقعه وأنا أسير في شوارع صوفيا أو بورجاس في الجنوب أن أسمع في السيارات المارة إلى جانبي صوت عمرو دياب وهو يغني، مما دفعني لأن أسأل مرافقي فاسكو عن هذا الأمر، ففتح لي تابلوه سيارته لأجد فيه أربعة شرائط لعمرو دياب، وتعجبت ما الذي يعجبهم في غناء عمرو خصوصاً أنهم لا يفهمون كلمات

أغنياته، فقال لي بعضهم إنهم عرفوه عن طريق الإنترنيت ويشعرون أن كلمات أغنياته رومانسية مثل الزمن الماضي الذي لم يعد موجوداً، وحين ترجمت لفاسكو كلمات حبيبي يا نور العين قال لي ألم أقل لك إننا نشعر بمعاني الكلمات حتى دون فهمها، ويحلم عشاق عمرو دياب في بلغاريا أن يقيم حفلاً هناك في يوم ما، وأظن أن عمرو نفسه لا يعلم هذا ولعله الآن يفكر في الغناء لمعجبيه في بلغاريا.

وقائع رحلة الشقاء والحب

لم تكن رحلتي إلى بلاد الزبادي والعسل والورود رحلة يمكن أن أطلق عليها أيا من صفات هذا البلد، ولكنها كانت رحلة الشقاء والحب، فقد شددت إليها الرحال مع أربعة عشر رجلاً وثلاث نساء جاءوا جميعاً من واحات مصر، من الوادي الجديد في صحراء مصر يحملون علم مصر والزاد المكون من العيش الشمسي ومجموعة من الحقائب تحتوي على آلات موسيقية وملابس من الوادي تحكي قصة هذه البقعة الغالية من أرض بلادي، رفقائي في الرحلة كانوا مجموعة من فرقة الوادي الجديد للفنون الشعبية في طريقنا إلى مهرجان بورجاس للفلكلور جنوب مصر إلى أقصى الجنوب البلغاري كانت رحلة شائقة، أجمل ما فيا وجوه رفقائي وموسيقاهم ورقصهم ورنة خلخال المصرية.

بدأت الرحلة من مطار القاهرة إلى أثينا التي مكثنا في مطارها إحدى عشرة ساعة في انتظار الطائرة التي تقلنا إلى صوفيا عاصمة بلغاريا، ولم يكن لدينا شيء نفعله سوى الجلوس والانتظار، وحين أعيانا الإرهاق اكتشف أصدقائي رجال فرقة الوادي مكاناً في مطار أثينا أشك أن حتى المهندس الذي صمم المطار كان يتصور أنه سيستخدم كفندق لفرقة فنون شعبية مصرية، ففي اللحظة التي وصلنا فيها إلى المطار تفرق الرجال للبحث في أرجاء المطار ليكتشفوا مكاناً يصلح للنوم والراحة والصلاة، وبالفعل وجدوه وافترشوا الأرض في خن أو مخبأ لا يظهر للعيان، وبدوت أنا المترفعة الوحيدة عن افتراش الأرض، غير أنني بعد ساعات بدأت قواي تخور فمدد جسدي على كرسي معدني أصابني بألم فظيع في ظهري لم أكتشفه إلا وأنا في طريقي للطائرة فتمنيت لو أنني سمعت كلام الرجال ولكني بعد فوات الأوان.

لم تستغرق الرحلة بين أثينا وصوفيا إلا ساعة واحدة، حيث كان في استقبالنا في المطار

المستشارة الثقافية في سفارة مصر في بلغاريا السيدة فادية جلال، وقنصل مصر هيثم جلال، فكانا وجهين مشرقين أزالا عنا بعضاً من عناء رحلتنا التي لم تكن قد انتهت بعد، وكان أيضاً في انتظارنا شاب اسمه نيكولاي الذي كان مرافقاً لنا من إدارة المهرجان، وتركنا الطائرة لنستقل أوتوبيساً في طريقنا إلى بورجاس التي تبعد عن صوفيا ستمائة كيلو متر، فكأن رحلتنا لم تكن لها نهاية من طائرة لمطار لطائرة لأوتوبيس لطريق طويل امتد لست ساعات، ولم يكتف القدر بهذا العناء بل أضاف إلينا مفاجأة لم تكن بالفعل سعيدة، فقد رافقتنا في الأوتوبيس إلى بورجاس الفرقة الصينية للفنون الشعبية المشاركة في المهرجان وما أدراكم بفرقة الإخوة الصينيين، فقد مكثنا ونحن شبه جثث إلى جوار أكثر من ثلاثين صينياً وصينية لم يتوقفوا عن الحديث لحظة واحدة، أصواتهم جميعها تتميز بالطبقة السوبرانو ولم يكن الكلام فقط هو مشكلتنا، لكنهم أخرجوا طعامهم وراحوا يتبادلون أنواعاً منه فأصاب رؤوسنا صداع فوق الصداع وأصابت معدتنا تقلصات حادة ورحنا جميعاً نبتهل إلى الله أن ينهي ساعات الرحلة التي طالت حتى بدا أنها بلا نهاية، فالطريق مظلم وضيق وتكاد تشعر أن العربة القادمة ستصطدم بك ولكن لأن لكل شيء نهاية فبالفعل وصلنا إلى مدينة بورجاس الساحلية والتي تقع على البحر الأسود، وصلنا بعد ٢٥ ساعة منذ أن تركت بيتي أما رجال الفرقة فكانت رحلتهم أطول مني، لأنهم قادمون من طريق أبعد من الوادي الجديد أي ما يقارب ٣١ ساعة من مدينتهم حتى وصلنا إلى مقر إقامتنا.

كان مقر الإقامة هو المدينة الجامعية في بورجاس، وتلك كانت الصدمة الكبرى في الرحلة فحجرات المدينة الجامعية تشبه إلى حد كبير حجرات سجن أبو زعبل بل أستطيع أن أجزم أن سجن أبو زعبل أكثر راحة.

الحجرات التي أخذونا إليها وذهب اعتراضي أدراج الرياح، فالبحر الميت أمامي ولا شيء ورائي ولم يكن هناك من سبيل إلا النوم في السجن منذ الساعة الأولى لوصولنا إلى بورجاس، حتى الدعوة على العشاء في مطعم المدينة الجامعية كانت تشبه إلى حد كبير بل تتطابق مع مشاهد المساجين وهم يحملون الأطباق ويتم إعطاؤهم التعيين رغيف عيش وشوربة عدس أو فول، أما طعامنا في السجن البلغاري فكان شوربة فاصوليا بيضاء أو

شوربة عدس بجبة وأرزاً معجناً وقطعة فراخ أو لحماً عشرين جراماً وبطيخاً أقرع بلا لون ولا طعم.. وكان كل ذلك كفيلاً بأن يهدم تصوراتي أنني في أوربا وبالتحديد في بلاد الورد والعسل والزبادي، ولكن لأنهم قالوا قدياً الرفيق قبل الطريق فرفقائي كانوا رجالاً لم تلوثهم العاصمة رجالاً من مصر معجونين بالفن محبين له، أغانيهم أجمل من كل محطات الأغنيات الفضائية ورقصاتهم أروع من كل الفيديو كليب المستحدث وبناته العرايا، كان رفقاء رحلتي هم أجمل ما فيها فكأنني انتقلت إلى بلاد بعيدة أحمل معي أجمل ما في بلادي فرقة الوادي الجديد للفنون الشعبية، وكانت كلمة معلش يا رجالة تهون على كل شيء ثم أتت الأيام التالية لتكون باقة زهر.

وقائع اليوم الأول

سطعت الشمس على الشاطئ البلغاري، واخترقت نوافذ الحجرات التي لم تكن بها أية ستائر فصحونا مبكرين لتجري الفرقة بروفات الافتتاح على مسرح المدينة المفتوح، فكان يوماً جديداً رأينا فيه الحياة مختلفة وتعرفت فيه إلى حسني ناجي مطرب الفرقة. ومحمد عبدالله مصمم الرقصات، والطبال الذي بهر بلغاريا محمد سعد، وعلى عازف المقرونة وهي آلة نفخ تشبه الناي أحمد سويلم، الذي ترك عروسه بعد أسبوع واحد عسل ليسافر في هذه الرحلة، وتعرفت على صوت الناي الجميل إسماعيل مخلوف وعلى الراقصين الذين تضحك وجوههم ببسمة أسرت قلوب البلغار مرفت آدم وسمير فرغلي وحنان وياسمين وعلى مسئول الفرقة، والرجل الجميل عم أحمد شعبان وعلى محمد النجار مدير الفرقة الرجل الذي جاب العالم ولكنه يعشق جنوب مصر، فترك روما واستوكهولم ليعيش في الوادي الجديد يتكلم عدة لغات ويبدو دثماً أنيقاً ولكنه صعيدي من الرأس للقدم، أما أهل القاهرة في هذه البعثة كانوا ثلاثة أنا وشريف الحسيني رئيس البعثة وأحمد العدل من مكتب وزير الثقافة، وفنان صاحب صوت جميل اكتفى من موهبته أن يغني لأصدقائه ويمارس الثقافة من خلال عمله.

وفي السادسة كان موعد ما يطلقون عليه الديفيليه، حيث تسير الفرق المشاركة في شوارع المدينة بملابسها وتعزف بعضاً من موسيقاها وكانت فرقتنا أقل فرقة عدداً فكنا أربعة عشر بينما الفرق الأخرى أقلها ثلاثون ورغم هذا ما إن بدأ طابور العرض يسير في

طرقات المدينة في طريقه إلى مجلس المدينة حتى التفت الجماهير بالمئات حول الفرقة المصرية مشدودة لوقع الموسيقي ودقة الطبلة ورنة المزمار، ولم تمر دقائق حتى بدا أن الفرق المشاركة من الصرب وهولندا وبلغاريا وإستونيا وبولندا والنمسا واليونان وغيرها تركت تشكيلاتها وطوابير عرضها والتفت حول الفرقة المصرية تشجعها، وكان الطبال محمد سعد نجم هذا الكرنفال فقدم عرضاً مبهراً للدق على الطبول قال عنه مرافقونا البلغار إنه إعجاز أي والله هكذا بالحرف الواحد – It's a Miracle

وفي مساء اليوم نفسه كان الافتتاح على المسرح المكشوف المطل على شاطئ البحر والذي يسع أكثر من ثلاثة آلاف متفرج، ولم يكن هناك موقع لقدم وحضره عدد من الفنانين مشاهير في بلغاريا في مجال الرقص الشعبي، وأبرزهم كان عمدة المدينة الذي ألقى بكلمة ترحيب بالوفود، ثم نزل إلى صفوف المتفرجين ليجلس في الصف الرابع أو الخامس إلى جوار زوجته وابنته بلا حرس ولا رجال أمن يتحركون معه وكأنه أحد المشاهدين، وطبعاً ذلك كان موضع تعجب لي كمصرية اعتادت أن تعرف المسئولين بجوقة تحيط بهم من كل جانب وتوسع لهم المكان وتفصلهم عن البشر، باعتبار أنهم من غير البشر، أما عمدة بورجاس فقد كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً بسيطاً ويجلس بيننا بعد أن افتتح المهرجان وكرم إحدى أهم مطربات بلغاريا التي تعد بالنسبة لهم كأم كلثوم، وحين نزلت بعد التكريم بين الجماهير جلست أرقب السيدات العجائز خصوصاً وهن يقبلن يدي أم كلثوم بلغاري اعترافاً وامتناناً لفنها ولصوتها الذي صاحب تكريمها فبدا بالنسبة لي كأنه صوت قادم من السماء بالرغم من عدم معرفتي بمعاني الكلمات التي تشدو بها.

وحين بدأ العرض المصري الذي استمر حوالى ٤٠ دقيقة، شمل عدة رقصات توافد الجمهور أكثر على المسرح وأصبح الوقوف أكثر من الجالسين، ونزل حسني ناجي مطرب الفرقة بين الجمهور وبدأت بورجاس في تلك اللحظة كلها وكأنها ترقص وتتحدث وتغني بالمصرية، وبلغة ورقص أهل الوادي الجديد وشاركتنا الفرحة فادية جلال الملحق الثقافي في السفارة المصرية والتي قطعت المسافة من صوفيا إلى بورجاس لكي تشارك الفرقة المصرية فرحة رفع علم بلادنا، ولم تندم فادية جلال على الحضور أبداً فقد

استكملت معنا السهرة بعد أن عادت الفرق إلى مقر الإقامة والتف حول الفريق المصري كل الموجودين في المدينة الجامعية حتى العاملين فيها في ليلة مصرية الطعم والرائحة.

كان وصول الوفد الإسرائيلي في اليوم التالى للمهرجان بالنسبة لنا أمراً غريباً فكا السؤال ما هو الفلكلور الذي تملكه إسرائيل من الرقص والغناء وتستطيع تقديمه في مهرجان للفلكلور، ولم يكن الأمر مجرد سؤال ننتظر الإجابة عنه بمشاهدة عروض الفرقة الإسرائيلية في اليوم التالى، ولكن كان يؤرقنا كمجموعة مصرية وضع العلم المصري إلى جوار العلم الإسرائيلي في كل المواضع، فمهما حكت السياسة عن التطبيع واتفاقيات توقّع وصور تنشر للمسئولين يتصافحون إلا أننا لم نستطع كشعوب وبشر بعد أن نتجاوز مرارة وقسوة واقع لدولة مغتصبة للأرض، وبدا منذ اليوم الأول حالة من التوتر انتابت الجماعة المصرية من وجود الوفد الإسرائيلي برغم محاولتهم الكثيرة للاندماج معنا وطلبهم للعزف على طبول الفرقة التي رفضت ذلك بشدة، وحتى إلى التحدث معنا بالعربية، وحين لم يجدوا صدى منا اتخذوا موقفاً من الفرقة حتى إن مرافقنا قال لنا إنهم طلبوا لنا انبوليس بحجة الإزعاج، لأن كل الفرق تتجمع ليلاً حولنا في فناء المدينة الجامعية. والحقيقة أن أكثر ما أسعدنا كمصريين كان لقاء عمدة بورجاس في مجلس المدينة والذي تم بين رؤساء الوفود والصحفيين المصاحبين، فقد ألقى كل وفد كلمة وكان العمدة يرد عليها بكلمة ترحيب وحين أتى الدور على رئيسة الوفد الإسرائيلي دعت العمدة إلى زيارة القدس، ولكنه قال لها أتمنى زيارة القدس ولكن بعد أن تنهوا حربكم التي أرى أنكم تتحدثون عن انتهائها دون أن تعملوا على ذلك فأرجو أن تفعلوا ولا تتحدثوا.

واعتبرنا نحن تلك العبارة الموجزة وكأنها صفعة على وجه الوفد الذي بدا عليه الارتباك، ثم تبادل الهدايا مع كل الوفود إلا الوفد المصري الذي انسحب في هدوء من المكان في هذه اللحظة. وكان عرض الفريق الإسرائيلي عبارة عن الرقص الحديث الذي ترفع فيه الفتيات تنوراتها لتظهر ملابسهن الداخلية نجمة إسرائيل، ولا أستطيع أن أدعي أن وجودهم قد أفسد علينا رحلتنا ولكن على العكس لقد أسعدنا أن اسم مصر كان على كل لسان، وصور الفرقة المصرية الآتية من الجنوب تتصدر الصحف البلغارية وكذلك تم إجراء مقابلات صحفية وإذاعية وتليفزيونية مع أفراد الوفد، وكانت أغلب الأسئلة التي

طرحت عليّ خاصة بوضع المرأة المصرية، وهل تستطيع المرأة أن تسير في شوارع القاهرة مكشوفة الرأس، وأسئلة من هذه النوعية التي تنم عن تخوف من بلد مجهول بالنسبة لهم على كل المستويات إلا من فنه الذي يتابعونه كل عام من خلال هذا المهرجان والذي يبهرهم، مما يؤكد أن تراثنا الفني وتراثنا هو طوق النجاة لنا كي نصل إلى أرجاء المعمورة.

وتوالت عروض الفرقة في المدن المختلفة وفي أماكن متفرقة وكان كل عرض يضم آلافاً يقفون مبهورين أمام رقصة الحزام ودقة طبلة محمد سعد وصوت حسني ناجي وابتسامة الراقصين التي لا تفارق وجوههم.

واستمرت رحلتنا من نجاح إلى نجاح وصوت التصفيق لا يفارق آذاننا وكلمة إيجيتو أو مصر بالبلغارية تتردد على كل لسان، وعرفت وقتها أن بلادي جزء مني أصيل لا أستطيع أنا أو غيري أن يغرف حبها ويبارسه إلا وهو بعيد عنها.

رحلة العودة

كانت رحلة العودة تماماً كالبداية، مع فارق كبير أن النهاية والعودة كانت مرسومة بالانتصار برغم أن رفقاء الرحلة إلى صوفيا كانوا مرة أخرى الصينيين الذين عذبونا في البداية وودعونا في النهاية بالعذاب أيضاً، ولكننا لكنا أكثر تسامحاً هذه المرة فمازالت كلمات الإطراء في آذاننا وتحمل الفرقة درع المهرجان وشهادة تقدير وذكريات إقامة في غرف تشبه السجون حوّلتها فرقة الوادي الجديد إلى غرف مليئة بالموسيقى والضحكات والرقصات، فأصبحت الأرض التي نحن عليها تتكلم عربي وتغني بالعربى.

مجلة نصف الدنيا – ٢٠٠٣

رحلات إلى بلاد المغرب

مقدمة:

ربما ستبدو بلاد المغرب هي الدولة الأكثر التي كتبت عنها على مدي رحلتي الصحفية، ليس لأنها الدولة الأقرب إلى قلبي أو الأسهل في السفر ولكن لأنها أكثر دول العالم التي تقيم مهرجانات للسينما ومهرجانات فنية على مدي العام، ولذا فتعد المغرب هي أكثر وجه ووجهة بعيداً عن مجرد كونها مكاناً منظماً لمهرجان فني أو سينمائي.

المغرب وإن كانت تقع في أقصي الغرب العربي إلا أنها بلاد تحمل زخماً وتنوعاً أظن أنني ما رأيت ولا كتبت عنه ما يكفي. ولكن يظل أني أرجو أن يكون ما كتبته عنه حتى الآن على الأقل ينقل جزءا من حضارة وثقافة مهما بَعُدت فهي قريبة باللغة وإن اختلفت لهجتها وبالتاريخ وبالجغرافيا وبأصول الثقافة والدين.

أسفي عليك يا مصر من أسفي

لا أتذكر بالتحديد متى قرأت رواية يوسف إدريس «النداهة» ولكني كنت بالتأكيد صغيرة جدا، وإن كنت لا أتذكر متي، ولكني أذكر كيف انفعلت بها وسحرتني فكرة النداهة.. فلكل إنسان نداهة تدعوه إلى طريق يسير فيه ولا يسأل إلى أين ولا كيف ولا متى لأنه ببساطة مسحور بتلك التي تناديه.

ومرت أعوام قرأت فيها مئات الكتب والروايات وسرت في عشرات الدروب ولكني لم أنس أبدا النداهة.. ببساطة لأنها دعتني بسحرها لحب السينما والتعرف على المدن، والوسيلة الوحيدة للجمع بين هذا الحب وذاك هو مهرجانات السينما المختلفة، فهي تسمح لمرتادها بمشاهدة أفلام من عوالم مختلفة، وفي ذات الوقت تسمح لي بأن أتحسس وأشم وأتذوق طعم المدن والبشر فيها، وكانت القاهرة تموج بأحداث وطوابير الخبز ودعوة للعصيان المدني.. حين دعتني النداهة لأن أرحل إلى أقصى الطرف الشرقي للمحيط الأطلسي أو آخر بلاد المسلمين «المغرب»، حيث يقام مهرجان «آسفي» للفيلم الفرانكفوني، وهي مدينة أطلق عليها ابن خلدون حاضرة المحيط، فهي تقع في الجزء الغربي من بلاد المغرب وتطل على المحيط الاطلسي، سافرت محملة بهموم القاهرة وأهلها، متصورة أن الابتعاد كفيل بأن يجعلنا ننسى ولو لبعض الوقت ولكن كيف والقاهرة تسكننا بهمومها وأحزانها وغبائها أحيانا حتى عن بُعد.

بلاد المهرجانات

يقام في بلاد المغرب حوالى ١٢٠ مهرجانا على مدى العام للفنون المختلفة، من بينها

٢٠ مهرجانا سينمائيا، وقد أقيم في نفس التوقيت بفارق يومين هذا العام مهرجانان أحدهما مهرجان تطوان في الشمال لأفلام البحر المتوسط على ساحله، وكذلك كان مهرجان آسفي في الجنوب على ساحل الاطلسي للفيلم الفرانكفوني، وقد حدث هذا التعارض بسبب إجازة الربيع التي يحصل عليها الطلبة في الجامعات والمعاهد وبالتالي رغبة كل مهرجان في مشاركة شباب المدينة في فاعلياته، اشتركت مصر هذا العام في مهرجان آسفي بفيلم «في شقة مصر الجديدة» لمخرجه محمد خان والذي فازت عنه بجائزة أفضل ممثلة غادة عادل، وكرم المهرجان حسن حسني في الافتتاح وأيمن زيدان من سوريا، وكان مفترضا أن يتم تكريم نبيلة عبيد في الختام، ولهذا عرض فيلمها «ما فيش غير كده» الذي أخرجه خالد الحجر، ورغم تأكيد نبيلة عبيد على الحضور والاتفاق معها على جميع التفاصيل فإنها اعتذرت قبل يوم واحد من حضورها مما سبب حرجا شديدا للقائمين على المهرجان، فنبيلة لم تخطرهم إلا حين اتصلوا بها لتأكيد موعد الطائرة، وهو تصرف غير مسئول اللهم إلا في الشدائد وهي لم تستطع أن تعطيهم سببا مقنعا للاعتذار!

وبالتالي صار حسن حسني النجم الأوحد للمهرجان، وأزعم أنه قد تم تصويره مع معجبيه في هذه الرحلة بأكثر مما تم تصويره على مدى حياته كاملة. كانت مدينة آسفي كلها تنادي باسم حسن حسني ولكنها في نفس الوقت كانت ترفض اسم نبيلة عبيد التي لم توف بوعدها وكرهوا فيلمها الأخير. حسن حسني كان يضحكني حين قال: لو أخذت درهما على كل صورة لصرت مليونيرا، ولكنه بالفعل كان كذلك بحب الجماهير المغربية له.

مئات من الأفلام العالمية تعود على المغرب بعائدات مالية وفنية هائلة، فكل مخرج عالمي وطاقمه يذهب إلى المغرب ويبني ديكورات هائلة ويتركها لتصبح بصمة على أرض المغرب، ويعلم أجيالاً من الفنيين والفنانين والكومبارس كيف يمكن أن تكون السينما، ولا يكتفي بذلك بل يعود مرة تلو أخرى ثم يصل به السحر لمداه ليقطن في بلاد المغرب أو على الأقل يشتري فيها بيتا.

ولا يسع المجال هنا لأضع إحصاءات موثقة عن المكاسب المادية والسياحية والثقافية التي تكتسبها المغرب من فتح أبوابها لتصوير الأفلام العالمية، ولحزني أن ما من فيلم تم

تصويره في المغرب إلا وكان قد مر صناعه على مصر لتصويره وقابلناهم بكل أسباب التطفيش بداية من الرقابة على السيناريوهات وتصورنا العبيط أننا قادرون على منع وجهة نظر آخرين في صناعة أفلامهم، ثم كم الإجراءات البيروقراطية التي من شأنها تطفيش الملائكة وليس السينمائيون من على أرضنا، ثم حالة النهب المادي التي يتعرض لها كل من يفكر في التصوير في مصر.

وأذكر على سبيل المثال أن أحد المخرجين الفرنسيين الجزائري الأصل حضر إلى مصر، وزار موقع مدينة الإنتاج الإعلامي وعرض سيناريو فيلمه على القائمين عليها ووافق على كل شروطهم وكان طلبه التصوير لمدة ٤٠ يوماً لفيلم بطولة النجمة العالمية صوفي مارسو، وكان سيدفع مليون دولار عداً ونقداً، وكل ما طلبه أن يتم التأمين على العمال المصريين وأن تدفع المدينة في حالة تسببها في التأخير في التصوير غرامة مالية وهي حقوق مشروعة رفضتها المدينة، فما كان من الرجل إلا أن رحل إلى المغرب وبنى فيها الأهرامات وصور فيلمه وكسبت المغرب وخسرت مصر.

مئات من هذه الحالات تحدث سنوياً حتى إنه لم يعد أحد يجرب الحضور لمصر، فسمعتنا السيئة في مقابل سمعة المغرب الجيدة في هذا المضمار حرمتنا مما تحظي به المغرب الآن.

والحق أني تعودت ألا أحقد على نجاح آخرين بقدر نقمتي على خيبة تخصني، وهذا بالتحديد هو إحساسي فأنا سعيدة ببلاد المغرب ولها، وحزينة وناقمة على كل من يتسبب في فقدان مصر كل هذه العائدات ثم بعدها نتحدث عن الريادة والسيادة. في حواري مع نور الدين الصايل، مدير المركز السينمائي المغربي، أهم جهة أو الجهة الوحيدة المنوط بها إنتاج الأفلام في المغرب، سألته كيف تسمحون أحياناً بتصوير أفلام يعتقد العرب أنها تسيء لهم وهل لديكم رقابة على السيناريوهات فرد قائلاً: «رقابتنا لن تمنع إنتاج تلك الأفلام، وأفضل لنا أن نسمح لهم بتصويرها لدينا ليتعرفوا عن قرب على حضارتنا ثم يعودوا ثانية بفكرة مختلفة عمن تصوروهم همجيين وإرهابيين».

رد احترمت صاحبه واحترمت فكره، وعرفت لم تقدمت السينما في المغرب وصارت تنتج ٢٠ فيلماً في العام، وهي ابنة الخمسين ونحن الذين تجاوزنا المائة عام ننتج خمسين فيلماً

محلياً ولا نستطيع أن ننافس بها في مهرجان واحد.

ولم يكن نور الدين الصايل هو الوحيد الذي سمحت لي رحلتي بلقائه من أهل السينما في المغرب، فقد التقيت أيضاً بمحمد على الهلالى، مدير مهرجان الصويرة لأفلام الصحراء، والصويرة هي واحة غناء في وسط صحراء المغرب في الجنوب وتقام دورته الخامسة في شهر يونيه وقد عرفت منه أنهم يقدمون ٣٠٪ دعماً نقدياً وأيضاً دون مقابل لمن يبني استديو في هذه المنطقة، وأن الهدف من مهرجانهم هو جذب السينمائيين العالمين لزيارة المنطقة والاستفادة منهم، وهكذا صارت بلاد المغرب كلها ستديو مفتوحاً ومركزاً تمثل فيه السياحة الناتج الثاني الأهم في الاقتصاد، وهي سياحة لا تقوم على ما فعله الأجداد بل ما ينجزه الأحفاد.

يا ناس! يا هوه! يا مصريين! لا تتخيلوا أننا نتحدث في أمر عبيط أو غير ذي جدوي، مصر فقدت ريادتها السياسية واقتصادها يتهاوى ولم يعد لنا من ريادة أو سيادة في ثقافة الكتاب نحن فقط نملك السينما ونجومها كرة أخيرة فلمَ ننكس كل راياتنا بيدينا؟!

اللعنة على المهرجانات والأفلام والنداهة التي سحرتني حتى أذهب لآخر بلاد المسلمين فأعود سعيدة بهم غاضبة منا، فأسفي عليك يا مصر بعد أن عدت من مهرجان «آسفي».

جريدة الفجر أبريل ٢٠٠٧

سحر السينما أقوى من سط الضبع

كنت قد قرأت منذ فترة طويلة كتاب باولو كويهلو «ساحر الصحراء»، والذي يحكي فيه عن راعي أغنام في إسبانيا، يحلم بالسفر عبر المغرب حتى مصر، ولكني رغم هذا وضعته في حقيبتي استعداداً للسفر إلى آخر بلاد المسلمين، بلاد المغرب مصحوبة بمشاهد من فيلم «بابل»، الذي شاهدته قبل أيام وفيه أيضاً حكاية من المغرب، فكأن هذه البلاد كانت تناديني حتى قبل أن أذهب إليها، في رحلة كان دافعها سحر السينما وأفلامها لمهرجان «تطوان» السينمائي، فدخلت بلاد المغرب بتذكرة سينما، لكني خرجت منها وأنا أحمل سحراً أكبر من كل حكايات الأفلام، فبلاد المغرب فيلم قائم لا ينتهي عرضه بمجرد كلمة النهاية.. إنها حكايات بلا نهاية.. حكايات تاريخ وقفت أرقبه عند مضيق جبل طارق، حيث بدأ أجدادي فتح الأندلس، وفي ذات المكان ربما أيضاً وقف آخر ملوك الأندلس العرب عبد الرحمن الداخل يبكي على ملكه الضائع، فقالت له أمه المقولة الشهيرة «ابك كالنساء على مُلكٍ لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال».

بلاد المغرب تاريخ قرأت عنه وحديث قابلته، ووقعت في سحره وهواه وتلك بعض من حكاياته.

مات الملك.. يحيا الملك

أنا على أرض عربية، فصورة الحكام تتصدر المطارات وكل مكان، والدعوات بطول العمر وسداد الفكر شيء معتاد لا يستوقفني ولا يعطيني إشارة أو أمارة بأن الشعب سعيد والحكم مديد ورشيد، ولكني حين وجدت صورة الحاكم هي الصورة الثابتة على

الهواتف المحمولة للناس والعامة، مثل سائق التاكسي والشباب على النواصي والعواجيز على المقاهي، كان لابد أن يستوقفني الأمر، فمليكهم محمد السادس الشاب. حاكم أتى بعد والده الحسن الثاني، أحد ملوك العرب التاريخيين، فهو لم يأت بانتخاب أو عن طريق ديمقراطي، ولكنه وارث لحكم ديكتاتوري كان يذيب ويغتال معارضيه، فكيف صار ابن هذا الرجل هو الملك المحبوب أو كما يطلقون عليه ملك الفقراء؟ يخرج إلى شعبه دون حراسة ليسير في الشوارع ويحيا كما يقولون عنه دون مظاهر للبذخ، رغم أنه أحد أغنى أغنياء العالم، تلك حكاية ملك صغير استطاع أن يحاكم عصر والده ويجري مصالحة وطنية يعوض فيها المناهضين السابقين عن ظلم وقع عليهم، حكى لي بعض المغاربة كيف بدأ الملك الصغير حكمه بزيارة بلدة في الشمال تعرض فيها أبوه لمحاولة اغتيال، وعلى إثرها لم يزر هذه المدينة أبداً وحرمها من كل الخدمات الرئيسية حتى مماته، فحين حكم الابن عوضها بالزيارة الأولى ليمحو غُصة في حلق أهلها. محمد السادس في الأربعين من عمره متزوج من «لالا سلمي» ولديه طفلان، والمثير أن محمد السادس كان لديه صديقة إسبانية والدها كان يملك فندقاً شهيراً في مدينة تطوان. وكان الكل ينتظر زواجه منها، ولكنه تقابل مع الأميرة في حفل توزيع شهادات تخرج في الجامعة فأعجبته من النظرة الأولى، ثم تقدم لخطبتها وتزوجا، مما دفع رجل الأعمال الإسباني وابنته لبيع القرية السياحية والفندق الذي يملكانه ويرحلا، أما الملك فكون أسرة صورتها جميلة يعشقها الناس، ويعتبرونها وردة على صدر بلادهم، ورغم أن الابن سر أبيه فإن حكم محمد السادس لا يحمل من ملامح حكم أبيه شيئاً، فقد حكم الأب البلاد بالحديد والنار، أما الابن فيحكمها بالزهور والبخور التي تشتهر بها أرض المغرب.

وحين كنت في زيارة لجامع الحسن الثاني في الدار البيضاء، أحد أكبر جوامع العالم، وهو مطل على المحيط الأطلسي وظل بناؤه لعدة سنوات انتهى إلى تحفة معمارية تراها من أي مكان في الدار البيضاء، قلت لمرافقتي: فلتقرأوا الفاتحة على روح الملك الذي بنى هذا المسجد، طلبوا مني أن اقرأها على روح الشعب الذي بناه فهذا المسجد - رغم أنه يحمل اسم الملك الغائب - شارك في بنائه كل الشعب المغربي بالأمر، فقد كانت وزارة الداخلية تحصّل أموالاً من الشعب بالإكراه لبناء المسجد، وإذا امتنع أحدهم كان المعتقل مصيره،

لذا فالمغاربة جميعاً يعتبرونه ملكية خاصة حتى لو حمل اسم ملك كان ظالماً.

زيارة الساحر المصري المعتزل وهدية مخ الضبع

الملك الذي غيّبه الموت تعددت الحكايات عنه وعن الخوف منه الكثير في حديثي مع بعض المغاربة إلى أن وصلت لمحطة كنت أتحرج من طرحها، فقد حكت لي مذيعة مغربية كيف أن الحسن الثاني كان يملك هيبة تلجم حتى أكثر المتحدثين لباقة في التحدث أمامه، وأضافت أن هذه الهيبة يقال إنها تعود إلى السحر الذي قدمه له ساحر شهير من مدينة سوس بالجنوب، المعروفة بوجود كم هائل من السحرة فيها، وهنا زال تحرجي من السؤال الذي كان يلح على حتى قبل أن تطأ قدمي المغرب عن السحر المغربي.

فكم من حكايات سمعتها عنه وعن لجوء كثير من حكامنا وزوجاتهم إلى سحرة المغرب المشاهير، وكذلك السحرة في السنغال الإفريقية، حكايات لا أملك عليها من دليل غير أن طول بقائهم في الحكم وامتلاكهم لزمام الأمور، برغم قهر الشعوب، دليل لا تفسره إلا لمسة ساحر، فكم كان في جعبتي من حكايات عن رجال أعمال وفنانات وسيدات مجتمع لجأوا لسحر أهل المغرب، فهناك قصة شهيرة عن سيدة كانت تحتفظ بالحيوانات المنوية للرجال الذين يقعون في هواها للإبقاء عليهم رهن إشارتها بمفعول السحر، وكم سمعتُ عن حكايات أمراء النفط الذين لا يتحركون صباحا من أسرّتهم إلا بعد الاتصال بالسحرة الذين يتبعونهم في المغرب والسنغال، حكايات وحكايات خلقت لدي فضول الدخول إلى عالم لم تطأ قدماي أرضه من قبل، فما سلمت يدي من قبل لعرافة لتقرأ في خطوطها وما قلبت قط فنجان قهوتي لأتفحص خطوط البن السوداء على سطحه الأبيض، فكل علاقتي بهذا العالم تنحصر في حب سماع أغنية قارئة الفنجان، وصوت حليم وهو يشدو بكلمات نزار قباني، ولكني في بلاد المغرب فكيف أنجو من مغامرة مثل تلك، رحت أبحث في كل وجه مغربي عن حكايات السحر والسحرة التي أجمع كل من قابلتهم على أن أشهر أماكن وجودهم في مدينة سوس بالجنوب إلى جوار أغادير، حيث توجد قرية مولاي إبراهيم، وهو ضريح أقيمت حوله قرية، وأشهر السحرة في المغرب إما من الأمازيغ أو اليهود، ولا تضاهي مولاي إبراهيم في شهرتها إلا مدينة السويرا التي يشكل اليهود فيها أغلبية، وكاد اليأس يدب في قلبي، فأنا في شمال المغرب والرحلة إلى

الجنوب تستغرق ١٢ ساعة بالأتوبيس، وأنا بحاجة لدليل لأذهب إلى مدن السحر، ولم يكن لدي مرشد إلا أن المصادفة أوقعتني في يد رجلين وامرأة كل منهم كانت لي معه رحلة في عالم الجمهورش أو مشايخ السحر.

الأول قابلته في لقاء عمل، وسأشير إليه بـ «ح» وهو من دولة خليجية ويقيم بالمغرب في مهمة عمل. لم أجد حرجا في سؤال «ح» عن سحرة يعرفهم في المغرب خاصة أن أهل الخليج معروف عنهم ولعهم بهذه الأمور رغم عصريتهم، مصادفة لم أتصور أن تتحول إلى حقيقة حين قال لي إن طلبي متوفر لديه لأقابل أشهر سحرة المغرب إن لم يكن أشهر سحرة العرب، وإن كان متقاعدا ولكنه طلب مني ألا أطلعه على مهمتي وأن تكون زيارتنا له زيارة ود وتعارف.

وافقت على جميع شروطه، خاصة أن الرجل يقطن في الرباط العاصمة وبالفعل تحدث «ح» إلى الشيخ محمد، وحدد لي موعدا للقاء، ولعجبي فإن أشهر ساحر في المغرب هو مصري يعيش في قصر منيف في العاصمة المغربية التي وصل إليها كما يحكي منذ أكثر من ربع قرن، وللشيخ محمد الذي قارب السبعين حكاية أغرب من الخيال قصها على «س» الذي لا يؤمن هو نفسه بالسحر وأصحابه، ولكنه يقع في هوي هذا الشيخ الذي جمعه به حب الشعر، فالشيخ الساحر شاعر مفوّه، طويل وعريض المنكبين ومن مواليد ماريا المعروفة باسم إسكندرية تربى وتعلم بها حتى وصل إلى الجامعة لدراسة طب الأسنان، واستمر بها عدة سنوات ولكنه هجرها ليجرب حظه في بلاد الفرنجة، حيث سافر إلى ألمانيا وهناك تزوج من امرأتين فوقع في مشاكل كثيرة ليعود مرة ثانية إلى بلاده حيث يحاول فيها تجربة حظه ولكن مشاكل أسرية تحيط به، فينظر الشيخ حين كان بعد صغيرا صوب البحر الذي يحيطه، فيقرر أن يسافر ثانية ولكن تلك المرة تكون إلى بلاد الأطلسي التي يهاجر إليها لأنه علم أن أصول عائلته من تلك البلاد، ويستقر المقام بالشاب الفتي آنذاك على ضفاف الأطلسي ويذيع صيته في أرجاء البلاد فيأتي إليه السحرة المغاربة ليأخذوا العهد على يديه، ويذيع صيته أكثر فيلتقي بالأمراء والملوك ويتعرف إلى ملك المغرب آنذاك الذي يقال إنه منحه وساما رفيعا بنفسه، ويصبح الشيخ محمد المصري هو الساحر الخاص لأحد أشهر الملوك العرب لا يفعل شيئا إلا بمشورته ولا يوقع قرارا إلا

بعد أن يقره الشيخ حتى إنه منحه سيفه الخاص، وقبل أن يموت الملك منذ سنوات قليلة أخذ عهدا على الشيخ محمد ألا يمارس سحره مع أحد من بعده في مقابل جزء من ثروة الملك فأعلن الرجل استقالته من عالم السحر.

ورغم أن زيارة ساحر معتزل لم تكن لها نفس قوة مغامرة زيارة ساحر مازال لاعباً في المضمار، ولكنها على أية حال بالنسبة لي كانت مغامرة تستحق.

وفي قصر «النجوم» القصر الذي يقطن به الشيخ عدت إلى عصور مضت، كنت أتمنى أن أحيا بها، فكأنني إحدى نساء نزار قباني التي حكى عنهن من عهد شهريار وشهرزاد.. كل ما بداخل القصر من مقابض للأبواب وأشياء ملموسة من الذهب الخالص، وتشارك احياة مع الشيخ ثلاث زوجات اثنتان ألمانيتان تتحدثان العربية «بنطق مكسر» وواحدة معربية.. نساء في حالة خضوع تام وتفانٍ وتسابق لإرضاء الشيخ، ورغم الزوجات الثلاث فإن الشيخ لم يرزق إلا بابن واحد وسبحان الله فولده الوحيد معاق ذهنيا، فهل كان ذلك جزءاً من ضريبة يدفعها الرجل للتعامل مع عالم الجان المحفوف بالمخاطر و الحرام؟!

لم يكتف الشيخ بخدمة نسائه فأتى بعدد من الخادمات وكأنهن ملكات جمال يرتدين ملابس كملابس إبليس في بلاد العجائب، ألم أقل لكم إني دخلت القصر المسحور؟! لا يصحو الشيخ من نومه إلا قبل العصر بقليل وإلى أن يستعد لاستقبال ضيوفه تكون الشمس في طريقها للمغيب، وأهل البيت يستعدون لوجبة الإفطار، وللشيخ هيبة ربما أعطاه سنه بعضاً منها، وربما طول القامة ساعد في هذا، وربما هناك عامل نفسي في أنني ألتقي بساحر معتزل وكل ذلك لا يصل إلى شيء من وصف ملابس الرجل، فرغم أنها مهورة بأسماء أشهر مصممي الملابس في باريس ولندن فإنها تشبه ملابس شعبان عبد الرحيم في فجاجة ألوانها الصارخة ولكنها أكثر عرضا من جهة الكتفين فيبدو وكأنه يرتدي أجنحة.

الشيخ محمد رجل خفيف الظل يتحدث بعدة لهجات ويهوى الشعر الحلمنتيشي باللغة المصرية العامية، كما يقرض الشعر بالفصحى. لا يمكن أن تجزم من أي بلد أتى رغم أنه يعتز بمصريته ولكنه بالنسبة لي أتى من بلد الجن الذي لم استطع أن اسأله عنه، فرفيقي قد

حذرني من أن أتحدث مع الشيخ حول هذا الأمر. الشيخ رجل ابن نكتة شديد الاطلاع على أحوال العالم والدنيا، يحكي عن السياسة بنفس شغفه عن سحر الشعر ويتذكر الإسكندرية بنفس العشق الذي يذكر به برلين، أما المغرب النائمة بين حضن المتوسط والأطلسي فهي بالنسبة له المرفأ الأخير الذي استقر على صدره.

الشيخ رجل كريم، موائد طعامه تشبه حياته وثراءه، لغز لم أستطع عن أسأل عنه لكني اكتفيت بمشاهدته وكأنني طفلة وضعت رأسها في صندوق الدنيا. ودّعت الشيخ محمد المصري ولسان حالي يقول له «يا عم حزنبل» ورفيقي يشدني من يدي ليقول كما عم حَزنبل في فيلم «صغيرة على الحب» «اليوم خلص».

ولكن الرحلة لم تكن بعد قد انتهت، رحلة كان لابد لي من أن أكملها بحكاية مع ساحر لم يعتزل، وهذه المرة كانت رفيقي في الرحلة «س» رجل مغربي حكي لي أن الرجال في المغرب أغلبهم يخافون النساء لأنهن يلجأن للسحر، وأنه هو نفسه قد تعرض من طليقته إلى سحر دفنته في أرض البيت الذي كانا يسكنانه، وعقدته بمائة وخمسين عقدة ولم يخلصه من آثار ذاك السحر إلا الشيخ الذي صحبني للقائه على بعد ٧٠ كيلومتراً من مدينة الرباط، قرية صغيرة تبدو كمنطقة شعبية من مناطق مصر في الهرم أو فيصل أو عين شمس، دخلت مكتب الرجل المكون من حجرتي انتظار واحدة للرجال وأخرى للنساء، مكان يبدو فقيراً لا شيء فيه لتصفه، انتظرنا الشيخ لبعض الوقت حتى أتى وأدخلنا حجرة شديدة الضيق لا يوجد بها إلا مكتب كبير متهالك وكرسي يجلس عليه وكنبة صغيرة تسع اثنين أمامه مباشرة، ثم أخرج مجموعة من الأوراق البيضاء وسألني عن اسمي ثم اسم أمي وبدأ يكتب بأحبار صفراء وسوداء ويحسب ويعد ويتكلم بصوت منخفض وكأنه يحدث أحداً، والحق أني حتى هذه اللحظة كنت أشعر بأنني بداخل شريط فيلم هندي، قصة سأعود بها إلى القراء لأنقلها وهي كذلك، إلا أنني بدأت أشعر فجأة بألم في جسدي وحالة تثاؤب لا تنقطع، وانتابتني حالة خمول غريبة مفاجئة حتى إنني بدأت أسند رأسي بين يدي لكي لا تقع على المكتب أو على كتف رفيقي، وراح الفقيه السيد إيت يبتسم لي ويتحدث بلهجته المغربية التي لولا رفقة «س» ما كنت فهمت منها شيئا، راح يقول لي إن هناك عملاً يسكنني، وأن هذا العمل صنعته لي امرأتان وأنه يسبب لي كثيراً من

المشاكل، ورغم أني كنت في حالة خمول كامل فإن السخرية تلبستني فالحق أنني أواجه مشاكل كجميع البشر ولكن أغلبها بسبب طول اللسان، وتصوري أني أقول الحق ولا أرضى عنه بديلا، والحق أيضا أنه معمول لي عمل ولكنه عملي.. وراح الرجل يكتب ثم يكتب ويقول لي إن الناس تنفر مني لأني ككل البشر هناك من يحبني وهناك من ينفر، مني وقررت أن أغلّس على الفقيه فكلما سألني سؤالاً قلت مش عارفة ولم يكن هناك شيء يؤرقني سوى حالة التثاؤب غيرّ المنطقية الذي بررها الشيخ بأنها خروج للعين والحسد، فضحكت وقلت «حسدوا الفجر على ضل الشجر» فما أنا ممن يستحقون الحسد إلا من المجاذيب والحمد لله من قبل ومن بعد.

المهم بدأ الفقيه يكتب قائمة بالطلبات، بخور أستحم قبله بمياه البحر ثم بخور أمر عليه مرتين، ثم أستحم بمياه نهر عذب، ثم صورة توضع في ورقة، ثم أستحم بمياه نهر عذب، ثم صورة توضع في ورقة، ثم وعد بالزيارة التالية، ولكن حين عرف أني في طريقي للعودة ولن أمكث في المغرب طلب مني البقاء حتى يستطيع فك العمل، ولكن حين تأكد أنه لا سبيل لبقاء الزبونة أخرج من درج المكتب مسحوقاً أبيض وراح يضع منه شذرات في داخل ورقة، فقلت في نفسي يا ليلة سودة لو أن هذا المسحوق هيروين وطب علينا البوليس المغربي ودخلت في فضيحة عبر البحار، ولعنت الفضول الصحفي النسائي الذي دفعني لزيارة الفقيه واروش، ولكن الرجل أخرجني من تصوراتي حين أعلن لي أنني زبونة محببة لأني من مصر وأتيت مع «س» صديقه، فقرر أن يساعدني ولهذا سيهديني مسحوق مخ الضبع.. يا ليلة سودة مخ الضبع! ومن يكون الضبع؟! فأنا لا أعرف إلا شخصية الضبع التي قام بها زكي رستم في فيلم مع نعيمة عاكف،ولكن مرافقي أسر لي بأن مخ الضبع سره باتع وهو نادر جدا وله مفعول قوي في إزالة السحر وإخضاع الناس، ولم أكن في حالة تسمح بالمناقشة ولكني للحق تمنيت أن أستخدم هذا المخ مع رئيس التحرير عادل حمودة حين يعنفني، لأني أتأخر في تقديم عملي، فقلت مخ ضبع أو مخ أسد فليكن وخرجت من مكتب الفقيه بعد أن دفعت مبلغاً محترماً مقابل أربع ورقات ومخ ضبع وحلم أن يكون له تأثير في أن أقتسم المبلغ مع عادل حمودة، الذي كان السبب، فهو الذي أوحى إليّ بأن أفلام السينما بتروح وتيجي وإنني لا أفعل شيئا إلا مشاهدة الأفلام

والكتابة عنها، ولهذا طلب مني أن أبحث في المغرب عن شيء آخر أكتب عنه غير السيما وها أنا بحثت فهل مخ الضبع سيكفيه؟

ومنذ عدت من رحلتي وأنا انتظر تأثير مخ الضبع الذي لم يفلح مع رئيس التحرير، ولم يفلح مع زوجي في ألا يؤنبني أنه سمح لي بالبقاء كل هذه المدة بعيدا عن مسئولياتي، ولم يفلح مع أبنائي الذين يعذبونني ككل الأمهات، ولم تزد من حب أحد أو تقلل من كراهية أحد، فكان عليّ أن اختار بين أنه مخ ضبع تايواني أو «كذب المنجمون ولو صدقوا» وأنا أؤمن بالأخيرة.

جريدة الفجر – مايو ٢٠٠٧

قنديشة جنية تسكن بلاد المغرب

قد أزعم أني امرأة عصرية لم أبحث يوماً عن غيب في بقايا فنجان أو وشوشة ودع بحري، قد أزعم أني أضحك من جهل امرأة تتحدث عن عمل السوء الذي وضعته غريمتها في شفطة ماء شربتها، قد أزعم عشرات القصص والمواقف التي تجعلني أحارب الخرافة في مجتمع شرقي مدمن لها، ولكنني لا أستطيع أن أزعم أني أقاوم مشاهدة فيلم داخل مسابقة رسمية في مهرجان سينمائي ولهذا جلست أشاهد الفيلم المغربي المشارك في مهرجان مراكش «قنديشة» والذي أخرجه جيروم كوهن أوليفار المولود في فرنسا وهو يهودي مغربي فرنسي والفيلم يحكي قصة عصرية لامرأة تتعرض للاتهام بسبب مقتل زوجها الذي كان يعذبها ودفاعها يقول إنها بريئة، وأن القاتلة هي قنديشة، ولكن من تكون تلك القنديشة التي يعوذ المغاربة ربهم منها؟

قنديشة ملكة، جنية أسطورية في حياة المغاربة عاشت في القرن ١٤ ،حبسها زوجها وعذبها ولكنها اختفت في يوم من سجنها ولم يعثر عليها أحد، ولكنها تخرج الآن لتنتقم من كل رجل يعذب أو يسيء لامرأة، قنديشة جنية مغربية تدافع عن النساء المقهورات، فلكل امرأة في المغرب قنديشة، ورغم أن الفيلم ليس على مستوي فني جيد، فإنه جعلني أمد يدي لامرأة تقرأ لي الغيب في كفي في ساحة الفنا أشهر معالم مراكش، فأنا في بلاد تسحر أهل الغرب بالجغرافيا والتاريخ وتسحر أهل الشرق بقراءة الكف وأعمال السحر، فكان فيلم قنديشة هو الذي دفعني أن أجلس أمام العرافة المغربية التي راحت تحكي لي عن ماض نسيته ومستقبل أجهله. ورغم أنني على يقين من أن صدق المنجمين كذب فإن

الذنب ذنب قنديشة الفيلم المغربي الناطق أغلبه بالفرنسية.

وبعيداً عن سحر قنديشة فإن سحر مهرجان مراكش ينبع من الجمهور المغربي، فالمهرجان يقام في قصر المؤتمرات في وسط المدينة ولكن أبوابه مفتوحة يصطف على جانبيها الجمهور المغربي على مدي أيام المهرجان بأعداد غفيرة ليشاهد النجوم ويشارك في مشاهدة الأفلام، قاعات الأفلام تزدحم بالجمهور المتعطش للسينما، فالجمهور في المغرب لا يبحث عن مذظر ولكنه يبحث عن فيلم جديد، وفي رحلة بحثه يشاهد كل الأفلام من كل بلاد العالم، مهرجان مراكش قد يبدو في حفلاته وسهراته مهرجاناً للصفوة، ولكن كل فعالياته الرئيسية-لجمهور العامة، فالجمهور في مراكش هو مصدر البهجة للمراقبين له، وإن كان النجوم والأفلام هما مصدر بهجة هذا الجمهور.

مراكش مدينة المتناقضات

لكل مدينة زيتها عندي رائحة ولون يخصها، ولمراكش رائحة الورد والبخور واللون الأحمر القاني، هي مدينة تحمل كل المتناقضات فهي التقاء للشرق والغرب، أهم معالمها مسجد، ورغم ذلك فهي ملتقي لكثير ممن يحملون صفة الجنس الثالث (شواذ من الرجال والنساء) يرون في مراكش المكان الآمن، ومغاربة يحلمون بالهجرة إلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط، وفرنسيون ما إن تطأ أقدامهم أرض مراكش إلا ويقعوا في هواها ولا يبرحوها بل يدفعوا إلى أهل المغرب لإعطائهم أوراقاً تثبت أنهم يعملون حتى يبقوا في المغرب، في مراكش مثال عظيم لعبارة (قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) ماحَدِّش عاجبه حاله. فالمغاربة يحلمون بالهجرة منها والفرنسيون يحلمون بالإقامة فيها ويحجون إليها على الأقل في عطلة نهاية الأسبوع.

في مراكش تناقضات حياة البشر، ففيها القصور والنساء اللاتي يرتدين مجوهرات شوبار وأزياء كريستيان ديور، وفيها فقراء ينامون شبه عرايا على الأرصفة. مراكش مدينة تغمرها الشمس رغم أنها محاطة بجبال الثلج، ولذا فهي تشبه الجغرافيا.

جريدة الفجر – أبريل ٢٠٠٨

غياب نجوم الدالي

أبدو أحيانا بل غالبا مسحورة بالفن السابع، وهو كل شاشة كبيرة مضاءة في قاعة صغيرة أو كبيرة مظلمة، وهذا السحر يدفعني للرحيل بين الحين والآخر من مصر إلى بلاد مختلفة تحتفي بالسينما، وأكثر البلدان العربية قاطبة التي تحتفي بالسينما وترى في مهرجاناتها فرصة للاستثمار المادي والثقافي هي المغرب.. ولهذا ففي المغرب يقام سنوياً أكثر من ٣٥٠ مهرجاناً منها نحو مائة مهرجان للسينما. ومحطتي في هذه الرحلة أقصى الجنوب المغربي في منطقة الداخلة التي تنام بين أحضان المحيط ويفصلها عن الحدود الموريتانية ٣٠٠ كيلو.

يقام في الجنوب سنويا ملتقى دولياً للسينما، وفي كل عام يقام في محافظة مختلفة، فالعام الماضي أقيم الملتقي في محافظة العيون، أما هذا العام فالداخلة هي حاضنة الملتقي الذي تعرض فيه بانوراما للسينما المغربية إضافة إلى أفلام من ١٢ دولة بينها فرنسا وإسبانيا وتونس وسوريا وسويسرا وألمانيا ولبنان وكذلك مصر التي تعرض فيلم «ميكانو».

وعادة ما يضفي الوجود المصري على الملتقيات والمهرجانات العربية خاصة المغرب حالة من السعادة سواء للقائمين على المهرجان أو لجمهور هذه المهرجانات.

هذا العام دعا المهرجان أسرة مسلسل «الدالي» لتكريمهم برغم أنه مهرجان سينمائي، وذلك للنجاح الكبير الذي حققه المسلسل في المغرب، كما تمت دعوة فيلم «ميكانو» وأبطاله تيم الحسن ونور، ولكن للأسف رغم الاحتفاء الذي كان ينتظر أبطال المسلسل اعتذر نور الشريف لانشغاله بتصوير عملين لرمضان وكذلك سوسن بدر، أما وفاء عامر ومحمد فوزي وصلاح رشوان لم يعتذروا وأكدوا حضورهم، ورغم هذا لم يحضروا مما سبب حرجا كبيرا داخل المهرجان، وكذلك حرجا لكاتب المسلسل وليد يوسف الوحيد الذي التزم

بالحضور، وبالفعل تم تكريمه كما أقام ورشة خاصة بالسيناريو على هامش المهرجان.

الفنانون المصريون شاء من شاء وأبي من أبي،هم فاكهة المهرجانات العربية السينمائية، وهم لا يدرون ربما أن دورهم يتصدي تمثيل أنفسهم ولكن على عاتقهم يقع استمرار مصر رائدة ودرة تاج للتجمعات السينمائية والفنية العربية.

درجة الحرارة أعلى فاستعد كل منا بملابسه الصيفية، ولكننا وجدنا المفاجأة في أن الجو أقرب إلى الشتاء القارس منه حتى للصيف البارد، فكانت ورطة لنا جميعا.

منطقة الداخلة منطقة نائية عن العاصمة فهي تبعد ساعتين ونصف الساعة بالطائرة من الدار البيضاء، وهي تحمل بصمات مختلفة تماما عن الشمال المغربي، فهنا التأثير الإسباني أكثر وضوحا من التأثير الفرنسي، فإسبانيا كانت المستعمر لهذه المنطقة، ولذا يندر أن تسمع فيها اللغة الفرنسية فإما العربية أو الإسبانية، المغاربة في هذه المنطقة ملامحهم أقرب للملامح الإفريقية وكذلك لون بشرتهم.

النساء في صحراء المغرب يختلفن عن نساء الشمال، فالجمال هنا مرتبط بزيادة وزن المرأة فكلما زاد وزنها زاد جمالها وقيمتها، ومهرها جمل وحلي من الفضة، والنساء هنا لا يرتدين القفطان بل يرتدين الثوب مثل نساء السودان وموريتانيا، ويكاد المغاربة هنا لا يعرفون الذهب برغم أن هذه المنطقة يُطلق عليها وادي الذهب فإن الفضة هي المعدن النفيس في الصحراء، والدين الوحيد هو الإسلام فالمغاربة إما مسلمون أو يهود ولكن اليهود ليس لهم وجود في الجنوب وأغلب تجمعاتهم تكون في فاس.

حفل افتتاح الملتقى السينمائي الدولي أقيم في ميدان عام تم فيه تجهيز مسرح كبير وحضره أهالي البلدة يشاهدون نجومهم المغاربة الذين أتوا لمساندة المهرجان من مخرجين وممثلين، وكان أبرز الحضور المطرب اللبناني يوري مرقدي الذي غنى معه الجمهور أغنية «عربي أنا» بدون موسيقى. وكان غياب النجوم المصريين صدما للجمهور الذي انتظرهم حتى إن بعض المغاربة المقيمين في إسبانيا حضروا خصيصا للقائهم حين عرفوا ولكنهم أصيبو بخيبة أمل لغيابهم.

قد لا تكون منطقة الداخلة في أقصى جنوب المغرب ليست مغرية للنجوم كدول النفط السينمائية، ولكنها مدن تحمل حبا وقيما للفن المصري يساوي كل النفط وأكثر من دبي أو أبوظبي.

جريدة الفجر - مايو ٢٠٠٩

المدينة المجنونة الحمراء

في كل مرة أكون في طريقي راحلة من القاهرة إلى أي مدينة، في بلد آخر، مهما كنت أحبه، أشعر وكأني منزوعة الجذور، ففي القاهرة كل معالم حياتي، فهي المدينة التي تحمل وتتحمل كل متناقضاتي التي ورثتها منها وأمارسها فيها.

ولكن في هذه المرة اختلف الأمر وأنا راحلة عن القاهرة متجهة إلى بلاد المغرب لحضور فاعليات مهرجان مراكش السينمائي الدولي، لأني ببساطة كنت سأترك القاهرة الغاضبة التي خاصمتها لأنها خاصمت نفسها وأصابها الجنون بعد مباراة كرة قدم حدث فيها وبسببها ما حدث، كنت قد مللت من رؤية وجوه على الشاشات تتحدث عن الوطنية والكرامة المهدرة، وزهقت من الجلوس أو حتى حديث تليفوني يحاورني عن رأي فيما يحدث أو ماذا يجب أن يكون، فالقاهرة التي أحبها لأنها متنوعه، لم تعد كذلك فقد تحولت إلى ستاد كرة قدم لا صوت فيه يعلو على التعليق الرياضي أو التشجيع والصراخ، وأنا أكره المعلقين الرياضيين وتحليلاتهم العقيمة وكل شيء يخص ملاعب الكرة وحتى مشجعيها، لأنهم يسيرون بمنطق القطيع.

ومع القطيع كل شيء يتوه، وأول ما يتوه هو صوت العقل، وبذلك فقدت القاهرة بالنسبة لي أي معالم للعقل فخاصمتها وسعدت بابتعادي عنها.

وسأذهب إلى بلاد تحتفي بالسينما التي أحبها، وسأشاهد أفلاما من كل بلاد العالم، وسأقابل نجوما أعشق أعمالهم ولا وسيلة لي للقائهم إلا من خلال مهرجان كمهرجان مراكش الذي تسير فيه النجوم على الأقدام مع سائر البشر.

ومراكش ليست فقط أفلام ونجوم، ولكنها المدينة الساحرة الحمراء التي توجد بها ساحة الفنا، أكبر مطعم في العالم وحدائق زهور غنّاءة وشاي مغربي صاف ووجوه تعشق لكنتي في نطق اللغة لأني مصرية، وسوق عتيق يردني إلى زمن الأندلس وأشياء وأشياء كلها ترجح أن أيامي المقبلة وأنا هاربة من صخب الحديث عن الكرة في القاهرة قد انقضت.

في المغرب مغفور لك خطاياك لأنك مصري، بمعني أن المصري هو الإنسان المدلل من كل مغربي كبير أو صغير، رجل أو امرأة، أمير أو غفير، وذاك ببساطة يعطي لهم الحق كشعب أن يتحدثوا عن مصر وأن يمارسوا عليها كل الحق وأن يعتبوا عليها، فمصر عند المغاربة بتاعتهم كلهم.

السجادة الحمراء

حفل افتتاح مهرجان مراكش يقام في قصر المؤتمرات الملحق به عدة فنادق محيطة، وبه قاعات عديدة للعرض السينمائي وكل انفاعليات تقام فيه.

شاشات العرض العملاقة تنقل الفاعليات في كل أنحاء مراكش، إضافة إلى أن الجمهور يقف صفوفا لمشاهدة الحفل وضيوف السجادة الحمراء ولا تفصلهم عنهم أسوار مغلقة، كما في مهرجان القاهرة السينمائي أو مهرجان دمشق أو أي مهرجان عربي آخر بل تبدأ السجادة ومرور الضيوف في الشارع العام.

حفل أنيق صاخب بالجمهور الذي يقف ساعات وساعات لمشاهدة النجوم ومصافحتهم.. وفي داخل المسرح الكبير الذي يسع الآلاف يجلس الضيوف في حالة تشرح القلب حقيقة. وتبدأ المراسم بدون كلمات لوزير أو مسئول، مجرد تقديم لمذيع ومذيعة باللغة العربية والفرنسية وترجمة مصاحبة بالفرنسية والإنجليزية والعربية، ثم يصعد أعضاء لجنة التحكيم الذين يترأسهم هذه السنة المخرج الإيراني الأشهر عباس كيروستامي.

ويعلن عن فيلم الافتتاح، أما التكريمات فلا تتم خلال هذا الحفل ولكنها تكون على مدار أيام المهرجان باحتفالية مستقلة لكل مكرم، تصاحبها وقائع افتتاح مماثل لليلة الأولى.. وبذلك تظل أضواء مهرجان مراكش مضاءة على مدى أيامه الثمانية كل ليلة

وكأنها افتتاح.

فيلم الافتتاح كان هذا العام فيلم «جون زابي» مخرجه ألماني وهو فلوريان كالينيبيركر، وهو إنتاج ألماني فرنسي صيني ومأخوذ عن قصة حقيقية وقعت أحداثها في ناجين المدينة الصينية في عام ١٩٣٧، وبطلها ألماني وهو جون رابي مدير مصانع سيمنس الألمانية في الصين، فيلم رائع انتزع التصفيق من جمهور غفير لا يترك الأفلام ليحضر حفلات العشاء، كما يحدث للأسف في مهرجان القاهرة التي أنتمي إليها، مجرد ملاحظة وجب رصدها علنا نتعلم.

وكالعادة تتم دعوة كل المشاركين في المهرجان بعد الافتتاح إلى حفل عشاء على شرف صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، رئيس مؤسسة مهرجان مراكش، والذي يجلس على المائدة الرئيسية مع أعضاء لجنة التحكيم والمكرمين في وسط القاعة دون حراسة أو بودي جاردز، تمنع المرور أو ترصد أيديهم من تسوّل له نفسه في الاقتراب، بل يجلس الجميع في حضرة صاحب السمو الملكي المغربي بلا إجراءات أمنية ولا تنغيص عيشة، كما يحدث في مصر مع أي وزير أو مسئول حتى أقل من درجة وزير في فرح خاص.

أنا والأمير

لست من هؤلاء الذين تبهرهم السلطة أو يحومون حول رحالاتها، ولكن البشر ومتابعتهم ورصد طبائعهم هي التي تجذبني إلى مراقبتهم، وقد علمتني الحياة أن مراقبة رجال السلطة والمال والسطوة إنسانياً شيء شديد الإثارة.

في العام الماضي حين كنت أتابع وقائع نفس المهرجان في دورته الثامنة، كتبت عن لقائي بصاحب السمو الملكي، وأنا أجلس في المركز الصحفي، حيث فوجئت به يطوف المكان دون حراسة أو كلاب بوليسية تسبقه أو غيرها من مظاهر وصول شخصية مهمة وعلقت على هذا الأمر وكان بيننا حديث نقلته في حينه وكدت أن أنسى هذا الأمر، ولكني ولعجبي هذا العام أيضاً وأنا أجلس أحضر رسالتي للجريدة لإرسالها من المركز الصحفي للمهرجان، وجدت الأمير ثانية وبنفس الطريقة يطوف في المكان ليرحب بضيوف المهرجان بلا كلاب ولا حراسة مفتولة العضلات، ولا يد تمتد لتقصيك عن

طريقه.

وضحكت بشدة، فكلاكيت ثاني مرة وكأن الأمير يتخيّر الوقت الذي يزور فيه المركز الصحفي غيظاً فيّ لأني مصرية ليحسرني على حالي وأنا التي تدفع مبلغاً وقدره في مخالفات مرورية يومية، يقولون لي إن سببها سيارتي الغلبانة التي تعطل موكب سيارات لأحد المسئولين الذي أوقعني حظي العثر في السكن إلى جوارهم!

على أي حال في هذه المرة قررت أن أفعل شيئاً مختلفاً، أن أطلب التصوير مع الأمير وليس مجرد الحديث معه لأقترب أكثر، ولعجبي رحب الرجل بتواضع بل دعا جميع الحضور للتصوير معه وأنا أقف بجواره.

جريدة الفجر – ديسمبر ٢٠٠٩

obeikan.com

قصص الإثارة

حين تكون محباً للسينما وحكاياتها وشاشتها المضيئة، تجد نفسك دون أن تدرك أن أسوأ ما فيها هو لحظة إعلان النهاية لأي فيلم خاصة لو كان فيلماً جيداً أحببته.

والمهرجانات السينمائية ليست مجرد فيلم واحد، ولكنها عشرات من الأفلام نحب بعضها وقد لا نحب البعض الآخر، ولكننا في النهاية نكون مطالبين بالرحيل عن أيام وأفلام ووجوه وبلاد تركت فينا علامات.

مراكش ومهرجانها المقام في كل شارع وزاوية وركن، يترك ونحن راحلون غُصة الإحساس بالنهاية لفيلم دافئ أحببناه. وإن ظلت حكاياته مستمرة بداخلنا حتى بعد أن انطفأت أضواؤه في الشوارع وأعلنت لجنة التحكيم جوائزه، لأن كل مسافر إلى أي بقعة في الأرض سيجد أمامه في الطائرة شاشات تعرض مقتطفات من تاريخ المهرجان منذ بدايته حتى الآن.. بعبارة أخرى حتى وإن حاولت كمسافر أن تنسى ما شاهدت، فإن مهرجان مراكش يظل يطاردنا حتى لحظة وصولنا إلى بلادنا، دعاية مجانية على الطائرات المغربية من وإلى أي مكان في العالم.

القصة الأكثر إثارة

مهرجان مراكش ابتدع طقساً يميزه عن غيره من المهرجانات السينمائية، حيث تتم في كل يوم من أيامه سجادة حمراء واحتفالية تماماً كاحتفالية الافتتاح، لتكريم شخصية سينمائية أو فيلم سينما دولة مثل كوريا الجنوبية هذا العام.

وفي ليلة تكريم النجم العالمي الإنجليزي سيربن كينجسلي، صاحب الدور الأشهر

لغاندي، فوجئنا بدراجة بخارية عليها سيدة تقتحم الحواجز الأمنية وتطير في الهواء، وتنقلها الشاشات العملاقة في كل أنحاء مراكش وكذلك في داخل المسرح الذي يقام في المهرجان.. تصور الكثيرون أن هذه اللحظة مرتبة ومقصودة، ولكن هلع رجال الأمن واندفاعهم خلف الدراجة البخارية أكد لكل من شاهد هذا المشهد أنه مفاجأة ليست محسوبة.. وبدا الهلع في عيون النجوم خاصة الأجانب الذين ظنوا أنها عملية إرهابية، استطاع رجال الأمن إلقاء السيدة بدراجتها بعيداً عن السجادة الحمراء وشاهد الجمهور الحاضر لمتابعة الفعاليات السيدة تطير في الهواء بدراجتها البخارية ورجال الأمن يقيدنها، أعلنت الصحف في اليوم التالي أن السيدة مختلة عقلياً وقالت إنها أرادت بفعلتها مقابلة الملك الراحل الحسن الثاني!

ولأني عربية الأصل مصرية النشأة لم أبتلع قصة الخلل العقلي الذي يلصقه الأمن العربي بأي حادث حتى قبل أن يقبض على الفاعل. ورغم هذا الحادث العارض فإن فعاليات المهرجان استمرت في الشارع مع زيادة في الحرص الأمني الذي لم يؤثر في تجول الضيوف أو المرتادين لفعاليات المهرجان.

أنا والصحفي الجزائري

منذ أن وطأت قدماي أرض المغرب وأنا أواجَه بسؤال واستنكار وعتاب ونقاش حول موقعة الخرطوم بين مصر والجزائر، المغاربة دون استثناء يعشقون مصر بكل ما فيها، فهل تصدق أنهم أكثر منا حزناً على موت الدكتور مصطفى محمود الذي رحل في هدوء لأن رحيله أتى في أعقاب موقعة مصر والجزائر.

المغاربة عاتبون على الفنانين المصريين تصريحاتهم العنصرية لأنهم يرون أن الفنان المصري ملك لكل العرب، فالحب يمنح حقوقاً قد غفل عنها الفنانون في خضم كسب وركوب موجة قطيع غاضب. وكان عليّ كمصرية أن أنقل على الأقل لمن حولي أن مصر كبيرة ولا شيء يغريها في الصغائر السياسية أو الكروية.

خلا مهرجان مراكش من أي فيلم جزائري أو وفد، ولكن حين سألت وجدت صحفياً واحداً جزائرياً مددت له يدي فقال ضاحكاً تحيا مصر فصحت: ألجيريا فيفا.

جريدة الفجر – ديسمبر ٢٠٠٩

جائزة كراهية المغرب

مهما كنت غاضبة من القاهرة، ومهما كنت مستاءة منها ومن زحامها وكثرة قمامتها التي تحاصرني فتخنقني ومن أخلاقها التي تغيرت.. أجد أني أحملها معي حيثما ذهبت غصبا عني! فمهما خفت حقائبي في سفري أجدني مثقلة بمتناقضات ورثتها من القاهرة..

المدينة التي أعيش فيها حتى النخاع

تركت القاهرة الهادرة بغضب الكورة المخاصمة لأشقائها والمريضة بالشوفونية لمدينة متصالحة مع كل من حولها قبل أن تكون متصالحة مع غيرها وهي مراكش.

مراكش مدينة لا تعرف فيها معنى الغربة أي كانت جنسيتك أو لونك أو لغتك أو حتى دينك ومعتقداتك، فهي المدينة المغربية التي ترحب حتى بالشواذ الذين يجدون فيها الراحة ولا تحاكمهم أو تزدريهم لأنهم من أهل لوط. تسامح بشري عجيب في مدينة أعلى ما فيها مئذنة لجامع الفنا، وصوت الأذان يدب في أرجائها ليعلن عن موعد الصلاة، وكثير من شيوخها تجد على وجوههم تقوى وورعا حقيقيين حتى وإن لم تجد علامة على جباههم من زبيبة صلاة المصريين.

وجدت مراكش حزينة على وفاة الدكتور مصطفى محمود بصدق. يتحدثون عنه ويشاهدون على شاشاتهم برنامجه الغائب عنا «العلم والإيمان» في الوقت الذي لم تجد مصر وقتا لتحزن على هذا الرجل، لأنها كانت غاضبة بسبب موقعة أم درمان الكروية التي بدت أهم من رحيل رجل كمصطفى محمود.

في مراكش جلست إلى ساحر السينما وحاصد الجوائز العالمية المخرج أمير كوستاريكا،

المولود في سراييفو بالبوسنة ومنها انطلق ليصبح من أهم المخرجين العالميين، ولا يشارك بفيلم في أي مهرجان عالمي كبرلين أو كان أو فينيسيا إلا ويحصد الجوائز.

في مراكش قابلت سيربن كينجسلي، الشهير بغاندي والذي رشح ثلاث مرات بالأوسكار، ثم فاز بها وبلقب سير منحته له ملكة بريطانيا، وجلست بجوار كريستوفر والكن، بطل فيلم وعشرات من الأدوار التي عشقتها. وعشرات من النجوم مثل مخرج فيلم هاري بوتر، فجميعهم كانوا في متناول يدي لأن مهرجان مراكش مثل المدينة التي يحمل اسمها لا وجود فيه لصفوة نجوم يصعب على الإعلام الوصول إليهم.

مصر دي بتاعتنا كلنا

في المغرب مغفور لك خطاياك لأنك مصري، بمعنى أن المصري هو الإنسان المدلل من كل مغربي كبير أو صغير، رجل أو امرأة، أمير أو غفير، وذاك ببساطة يعطي لهم الحق كشعب أن يتحدثوا عن مصر وأن يمارسوا عليها كل الحق وأن يعتبوا عليها، فمصر عند المغاربة بتاعتهم كلهم.. لم أختلف مع مغربي واحد فيما عتب عليّ مصر من مثقفيها وفنانيها وإعلامها فالجميع قد أساء التصرف ولا أستطيع أن أصف لأي منكم سعادة كل مغربي كنت أنقل له رأيي، فكأن ما كنت أقوله بموضوعية تجاه خلاف مصر والجزائر كان ينزل بردا وسلاما على قلوبهم، لأنهم كمحب مصدوم في حبيبه، ووجد من يؤكد له أن حبيبه على الوعد وأنها مجرد زوبعة في فنجان سياسي ليس إلاّ.

الحب لمصر والكراهية لعمرو أديب وإبراهيم حجازي

لن أدعي أني قابلت ملايين المغاربة، ولكني أزعم أنهم جميعا اجتمعوا على حب مصر وكراهية عمرو أديب وإبراهيم حجازي وكل من يقدم برنامجا رياضيا على محطات التليفزيون المصري الخاص والرسمي، لأنهم تحدثوا بما لم يفهموه من السياسية والتاريخ والجغرافيا.

أما الفنانون المصريون الذين يعشقهم المغاربة ولا يتصورون الحياة بدونهم ويشعرون أنهم جزء منهم، فقد قالوا عنهم إنهم ملك لكل العرب ولا يحق لهم أن يزدروا عربيا أيا كانت جنسيته، لأن الفنان بلا جنسية أمام حب الجماهير. حكمة غابت عن عقول الفنانين والمثقفين فلا الحب مشاعر مقبولة مع القطيع ولا الكراهية مشاعر مبررة.

عند المقاربة حزن وغضب من يسرا ومحمد صبحي وعشرات من الفنانين الذين دفعتهم مشاعرهم أو ضمان اللعب على مشاعر الجماهير إلى أقوال وأفعال لم تكن تليق بهم. المغاربة غاضبون من زينة التي بالكاد بدأوا يعرفون اسمها لأنها قالت ما لا يصح مثل؛ إننا لا نعرف من الجزائر إلا عاهراتها على نواصي باريس مما دفعهم لأن يتساءلوا كيف تعرف زينة ذلك إلا إذا وقفت إلى جوارهن أو تعرف من الرجالة من يتفاوض معهن.

حاولت الدفاع عن البعض وغضبت مثل المغاربة من بعض الفنانين، ولكني ما استطعت أبدا أن أصل إلى سماحة أهل مراكش التي حفلت بكل أطياف الصحافة والإعلام من كل مكان، حسني الرداد بطل فيلم «احكي يا شهرزاد» النجم الشاب الذي صاحبني في جزء من رحلتي المغربية شعر بكثير من الانبهار بحب الجماهير للفنان المصري، فبدا وكأنه مدفوع لأن يخجل مما صنع زملاؤه الآخرون في المهنة ومدفوع لأن يعتذر نيابة عنهم برقة تعامله.

نجوم مصر يصارعون من أجل رفع قيمتهم المادية والمعنوية، ويتمسكون بكلمات مثل السيادة والريادة، ولكنهم نسوا كل ذلك أمام لغة القطيع فخسروا، ولعلهم يتداركون هذا الخطأ سريعا.. أمنية لعلها تتحقق.

جريدة الفجر – ديسمبر ٢٠٠٩

حكايات عن مراكش

مهرجانات السينما هي بالتأكيد تجمع عالمي لصناع الأفلام أو الحكائين الذين يأتون من الشرق والغرب، كل بلغته وبمفرداته يحكي حكاية من بلاد قد لا تسمح لنا أبداً الأيام أن نطأها بأقدامنا.

ودائماً ما يراودني الخوف أو التردد فيما يجب أن أنقله للقارئ عن هذه التجمعات السينمائية، فهل أحكي عن أفلام شاهدتها وربما بل بالتأكيد لن يراها القارئ إن لم يكن حاضراً، أم أنقل مجموعة من الأخبار الفنية التي يتم تداولها خلال هذه اللقاءات، وبعضا من النميمة التي ترتبط بالتجمعات الفنية؟

ولكن اسمحوا لي ألا أفعل هذا أو ذاك.. بل أصحبكم معي في رحلة إلى المدينة الحمراء كما يسميها أهلها أو «مراكش» المدينة المغربية التي يقام فيها كل عام مهرجان مراكش السينمائي الدولي.

مدينة قديمة جديدة

تقع مدينة مراكش في الجزء الجنوبي من بلاد المغرب، حيث تبعد عن الدار البيضاء حوالى ساعتين بالسيارة، وتحيطها سلاسل جبال أطلس الكبير، وهي مدينة قديمة يحكي أهلها حكايات عن نشأتها، وأنها كانت قديماً ممراً لقوافل التجار في منطقة المغرب العربي إلى بلاد أفريقيا كموريتانيا والسنغال وغيرها.

وأشهر وأقدم منطقة في مراكش هي ساحة جامع الفنا، ويقولون إن هذا الاسم أطلق عليها لأن من كان يمر من التجار دون أخذ العهد من أهلها كان يفنى في تلك المنطقة،

وتعد هذه الساحة والشوارع المحيطة بها تلخيصاً لكل الفلكلور المغربي، ففيها تجلس السيدات العجائز ليقرأن لك البخت والطالع، وأخريات ليرسمن الحنة على الأيدي، ورجال يلفون الثعابين حول أعناقهم ويرقصون معها، وآخرون يلعبون بالقرود. وهناك أيضاً حلقات الحكائين وهم يشبهون منشدي السير كسيرة أبي زيد الهلالي وغيره.

المدينة الحمراء لا يرتفع فيها بناء لأكثر من أربعة طوابق لتظل مئذنة الجامع ومبنى الكتبية دائماً هما المعلمين اللذان لا يعلو فوقهما شيء، وليظل بقوة القانون كل مبانيها حمراء كإسمها. وفي الليل تتحول تلك الساحة الكبيرة إلى أكبر مطعم في العالم في الهواء الطلق، حيث تتراص المناضد والكراسي والمطاعم التي تقدم الطعام المغربي التقليدي مثل الطنجيرة، والكسكسي، ولحم الرأس، والكوارع، وعشرات من الأكلات، ويرتاد تلك الساحة الآلاف يومياً، أما في فترة مهرجان السينما فتوجد شاشة عرض عملاقة تعرض أفلاماً مختارة من أفلام المهرجان يقف الآلاف لمتابعتها، ويذهب صناع ونجوم الأفلام إلى رواد ساحة الفناء ليقفوا على مسرح ليقدموا أفلامهم.

كل شيء في المدينة يحتفي بالمهرجان، فهو ليس مهرجاناً للصفوة، ولكنه مهرجان للمغاربة ولغيرهم من الجنسيات التي ترتاد المدينة، فقبل بداية المهرجان بساعات حتى نهايته تجد المئات من الشباب المغربي حتى العجائز يقفون في صفوف طويلة طلباً لتصريح خاص لحضور فعاليات المهرجان.

ملك الموضة يتعلم الألوان

مراكش هي ليست المدينة الحمراء لكنها مدينة الورد التي تحمل كل الألوان، فالورد البلدي فيها مزروع في كل مكان، وله رائحة الورد زمان وليس كما نراه الآن في مصر شكلاً دون رائحة، مراكش مازالت تعرف الورد البلدي، حتى ونحن في قلب الشتاء، لكن ورد مراكش مفتح ولا أحد يقطفه من الشوارع فهم يستمتعون بشكله ورائحته دون أن يؤذيه أحد.

ولأن مراكش مدينة الألوان فقد وقع في غرامها ملك الألوان مصمم الأزياء العالمي الراحل إيف سان لوران، الذي سكن تلك المدينة وطلب أن يدفن جزء من رماد جثمانه بعد الموت في مراكش، وكان له ما أراد، وحكاية لوران مع مراكش حكاية تبدو كالأفلام

أو الأحلام، فقد زار مصمم الأزياء مراكش عام ١٩٦٦، ومنذ ذلك التاريخ وقع في هواها بل قال «منذ أن اكتشفت مراكش كانت صدمة لي فهذه المدينة هي التي علمتني الألوان وكيفية خلطها» وفي عام ١٩٨٠ اشترى لوران منزلا في مراكش، وحوّله إلى حديقة غناء تذخر بثروة هائلة من نباتات جمعها من خمس قارات، وبيت عاش فيه، وطلب أن يدفن فيه، والبيت أصبح الآن مزاراً سياحياً ومعلماً من معالم مراكش باسم حديقة «ماجوريل» نسبة إلى صاحب البيت الأصلي الفرنسي جاك ماجوريل الذي وقع في هوى مراكش أيضا وعاش فيها منذ العشرينيات إلى أن مات في عام ١٩٦٢، وبعده اشترى إيف سان لوران المنزل ليصير حتى اليوم، دليلا على الهوى الذي يأسر قلوب الغربيين وخاصة الفنانين لمراكش.

صراع السيارة والموتوسيكل والحصان

كانت مدينة مراكش تتميز عن كل المدن المغربية بالموتوسيكل وسيلة المواصلات الرئيسية لدى الجميع شباباً وشيوخاً رجالاً ونساء، أغنياء وفقراء، الكل في هذه المدينة يستعمل الموتوسيكلات بصورة دائمة، وتكاد أن تحصي عدد السيارات في أي شارع على أصابع اليد، وإلى جوار الموتوسيكلات تجد أيضاً الحنطور، فهو وسيلة أخرى من وسائل المواصلات الرئيسية، وخاصة بالنسبة للسياح، إضافة إلى التاكسي، أو كما يسميه المغاربة طاكسي، وكنت في السنين الماضية أتأمل الشوارع، وسيولة المرور فيها، فأتمنى أن يهجر المصريون السيارات إلى هذه الوسيلة، ولكنني هذا العام لاحظت بشكل ملفت للنظر أن الموتوسيكلات تناقصت بشكل كبير، في الوقت الذي زادت فيه أعداد السيارات في الشوارع، وبالتالي زاد الزحام، ولكن طبعاً لا تتصور عزيزي بأي معنى من المعاني أن معني الزحام في مراكش هو نفس معناه مثلاً في مدينة القاهرة، لا.. لا.. انس!' ولكن المقارنة هنا بين مراكش حتى العام الماضي ومراكش هذا العام.

جريدة اليوم السابع - ديسمبر ٢٠١٠

في دمشق العرب يتعاركون وإيران تفوز

بينما العالم يرقب تغيراً درامياً في الاقتصاد من خلال انتكاسة اقتصادية وأيام لا تبشر بالخير للفقراء والأغنياء معاً، وتغيراً في مزاج وقناعات سيدة العالم أمريكا حين اختارت رئيساً أسود، تتصارع العواصم العربية فيما بينها على المهرجانات السينمائية، فمن أبو ظبي إلى قرطاج إلى دمشق ثم مراكش ومنها إلى القاهرة وأخيراً دبي.. ففي أقل من شهر ونصف الشهر تقام ٦ مهرجانات سينمائية عربية، ولقد أصبح الحديث عن التنسيق بينها ضرباً من ضروب الأحلام غير المتحققة، وعلى المتابعين والمهتمين مثلي بهذه المهرجانات بحكم المهنة أن يكتفوا بأيام قليلة من كل مهرجان وكأنهم نحلة تتذوق من كل زهرة قطفة، وقد تكون أحياناً علقماً من صبار أو سكر من ياسمين.

وإذا ذكر الياسمين فنحن إذن نتحدث عن مدينة الياسمين دمشق أو الشام، كما يحلو لأهلها أن يطلقوا عليها، بعد أيام قليلة من الافتتاح وصلت إلى دمشق التي تحتفل بكونها عاصمة للثقافة العربية وبمهرجانها السادس عشر الذي أصبح يقام مرة كل عام بدلاً من كل عامين، ومن دمشق أتيت لكم بحكايات ليست كلها عن أفلام قد لا يراها القارئ ولكنها عن البشر والفنانين وتداخل السياسة مع الفن حباً أحياناً وكرهاً في بعض الأحيان.. حكايات مهرجان دمشق تحمل كثيراً من الدراما التي تشبه أفلامنا.

الحكاية الأولى: «لا تعايرني ولا أعايرك الهم طايلني وطايلك»

كل صحف سوريا الشهيرة من «تشرين» و «البعث» إلى «الثورة» وغيرها تكتب مثلما نكتب في مصر عن تدهور حال الدراما التليفزيونية، فنحن نصرخ مطالبين بحال أفضل وبالحذر من تفوق الدراما السورية، وهم أيضا ينتقدون الدراما الخاصة بهم ولا يعجبهم

حالهم مثلنا تماماً، حتى إنني قرأت مقالاً لـ «حنّا مينا» أحد أهم أدباء سوريا المعاصرين يكتب عن المسلسلات التاريخية السورية معاتباً وناقداً، وكيف أنها مرمطت التاريخ فهي بالنسبة له مجرد مجموعة خيول وغبار وبعض الكر والفر بين مجموعات من الكومبارس، ومن العجب أن نري في هذه المسلسلات قمة الفن بينما هم يرون فيها خدعة فهل العيب فينا أم فيهم أم في المسلسلات نفسها؟!

الحكاية الثانية: قصة تكريم واستفهام

نادية الجندي غادرت المهرجان في أسعد حالاتها، فقد كرمها المهرجان في حفل الافتتاح، وقد توقفت بالفعل كثيرا أمام هذا التكريم فمهرجان دمشق يماثل مهرجان القاهرة في ضرورة تكريم عدد لا بأس به من الأسماء في الافتتاح والختام حتى إن التكريم يفقد معناه، والحقيقة أن تكريم نادية الجندي يطرح سؤالاً: هل التكريم يأتي للفنانين لمجرد كبر السن، أم أن التكريم لقيمة يمثلها ذلك الفنان بغض النظر عن عمره الفني أو الحقيقي؟ ونادية الجندي وإن كانت أطلقت على نفسها نجمة الجماهير إلا أن قيمة هذه الجماهير مرتبطة بزمن انقلبت فيه الموازين حتى صارت نادية نجمة لهم بأفلام لا تكاد تحمل قيمة، ولكن مهرجان دمشق له الحق في تكريم من يراه ولي نفس الحق في أن أسأل لماذا؟

الحكاية الثالثة: الصراع السياسي الفني

في نفس وقت اجتماع السينمائيين العرب كان السياسيون العرب يجتمعون تحت مظلة البرلمان العربي لمناقشة الاتحاد من أجل المتوسط برئاسة مصر وفرنسا، وكان الوفد المصري مكوناً من د. مصطفي الفقي ورجاء العربي واللواء سعد الجمال عضو مجلس الشعب، وتهاني الجبالى، يقيم في نفس الفندق الذي يقام فيه المهرجان، وحضر الوفد السياسي عرض الفيلم المصري وخلطة فوزية الذي يحكي عن أبناء العشوائيات على أطراف القاهرة وكيف يعيشون برغم أحزانهم وأحلامهم المجهضة، كره السياسيون الفيلم ورأوا أنه إساءة لمصر رغم كلمات المجاملة التي تبادلوها مع صناع الفيلم، فالساسة يكرهون عادة ما يفضح حياة شعوبهم. فهم أصحاب الياقات البيضاء والفنانون مهنتهم البحث عن نقاط الوجع وإبرازها.

الحكاية الرابعة: الصراع المصري السوري «الجنازة حارة والميت فيلم»

برغم الحبل السري والتاريخي الذي يجمع مصر بسوريا فإن هذه الدورة بدت فيها

العلاقات ملتهبة بين أهل الفن في البلدين.. صراع على سيادة وجوائز المهرجان، وكان الصراع بين أربعة أفلام.. فيلمين مصريين وآخرين سوريين، «صياد اليمام وحسيبة» الذي قامت ببطولته سولاف فواخرجي خرجاً من أي تنافس مع أفلام من قارات العالم كرههما الجمهور والنقاد معاً.

وبقي «خلطة فوزية» و «أيام الضجر» لعبد اللطيف عبد الحميد، وتم ترشيح إلهام شاهين لجائزة أفضل ممثلة مع الفرنسية التي فازت بالجائزة التشكيلية، وحصلت الفرنسية كرستين سكوت توماس على الجائزة وأتفق أعضاء لجنة التحكيم على إعلان أسماء المرشحات الثلاث، ثم إعلان الفائزة كما يحدث في كل مهرجانات العالم، ولكن إدارة المهرجان أعلنت أن هناك تنويهات خاصة لأداء سولاف فواخرجي وإلهام شاهين وبطل الفيلم الألماني المشارك، وهو ما لم يتم الاتفاق عليه، وكان أحد المسئولين عن المهرجان قد طلب من إلهام العودة لدمشق التي غادرتها قبل إعلان الجوائز مؤكدا أنها ستحصل على جائزة، ولم تستطع إلهام السفر لدمشق ولكنها أعلنت فوزها الذي أخبروها به، ثم فوجئت بعدم الفوز مما يضعها في حرج بالغ، ويضع إدارة المهرجان في حرج بالغ، ويضع إدارة المهرجان في حرج أبلغ فالجوائز لا تعطي لجبر الخواطر ولكنها تمنح لإبداع خاص، وأفلامنا العربية كانت تنافس أفلاماً أجمل كإيران وألمانيا وكولومبيا وغيرها، ولكننا في البلاد العربية نخلط بين جبر الخواطر والإبداع وشتان بينهما.

أما في مسابقة الأفلام العربية فقد فاز الفيلم السوري «أيام الضجر» كما أعلن دريد لحام بالجائزة، وقال إن الفوز بالإجماع، وقد حدث خطأ كبير يحسب على رئيس لجنة تحكيم لأن اللجان لا تعلن تفاصيل عملها على الملأ، ولكن دريد أراد أن يوصل رسالة أن الفيلم السوري لا خلاف عليه مقارنة بأفلام أخرى، فبدا وكأنه ينفي عن نفسه تهمة التحيز.

لست هنا في معرض الحديث عن فيلم «خلطة فوزية» المصري أو «أيام الضجر» السوري فالفيلمان بهما نقائض، مصري سوري لا أري لها مبرراً إلا مزيداً من الهزيمة لشعوب لم تعد لها من وسيلة سيادة إلا مسلسل أو فيلم.. بلا وكسة العرب!!

جريدة الفجر - نوفمبر ٢٠٠٨

رحلة إلى الجزائر قبل الحمام

كما أن للبشر أعمارا وحكايات، فللمدن أيضاً أعمار وتاريخ، وحين تأتيني دعوة لزيارة بلد ما أجدني أبحث سريعاً في ذاكرتي عن عمره وحكاياته لأقترب منه قبل أن يقترب مني، ومنذ أن وصلتني دعوة للاشتراك في ملتقى النقد الفني في السينما والتليفزيون الذي يقام على هامش مهرجان «الفنك الذهبي» المقام في الجزائر، بحثت في نفسي عن مرادف لكلمة الجزائر، فلم أجد عنها في ذاكرتي إلا فيلم «جميلة بوحريد» الذي أخرجه المصري يوسف شاهين، وأنتجته ومثلته الفنانة المصرية ماجدة، وبحثت أكثر فوجدت ذاكرتي تحمل بعضا من حكايات سنوات الجمر أو سنوات الإرهاب التي عاشتها الجزائر في ظل الجماعات المتطرفة، وأخيراً وجدت أنني في طريقي لبلد يقولون عنه إنه «بلد المليون شهيد»، ومهد موسيقى الراي التي ترقص عليها أوربا والعالم، معلومات لا ترقى لأن ترسم في عقلي صورة بلد وبشر، وكان هذا هو زادي الذي سافرت به، ولكنني حين عدت منها بعد رحلة استغرقت أسبوعاً، وجدت أن زادي لم ينقص بل امتلأ حتى فاض بحكايات عن بلد عربي يعرفنا جيداً ولا نعرفه إلا على استحياء، رغم أنه بلد يستحق، فله حكايات وحكايات.

حكاية الجغرافيا

الجزائر بلد كبير حوالى ضعف مصر، فيه ٤٨ محافظة، وتعداد سكانه حوالى ٣٥ مليون نسمة، يطل بشواطئ رائعة على البحر المتوسط، وتمتع طبيعته بتنوع فريد بين الغابات والواحات والصحراء والجبال، ومن العجب أننا نسعى للسياحة بين بلاد أوربا وأمريكا التي نقف على أبوابها مضطرين أن نخلع أحذيتنا للتفتيش، وكأننا في طريقنا للصلاة، بينما

هناك بلاد أجمل وأقل تكلفة في وطننا العربي ولا نعرف عنها شيئاً، ربما جزء من الخطأ نتحمله وجزء آخر يتحمله أهل تلك البلاد، وجزء أخير تتحمله ظروف إرهاب كان سباقاً لهذه الأرض في فترة التسعينيات.

حكاية الإرهاب

الإرهاب وليد تطرف لا تخلقه الشعوب، ولكنه كيان سرطاني يشكله القهر والظلم، وبدون أن أرتدي قبعة محلل سياسي، فالإرهاب في الجزائر تولد حين يئس الشعب من حكم بدا ظالماً، ولم يبق لهم من حضن يرتمون فيه إلا كلمة الله ورسوله التي يحمل لواءها عادة جماعات تتحدث باسم الله، وكأنها أخذت منه توكيلا عاما، وكما حدث في مصر تماماً فقد ولد التطرف في مناطق عشوائية فقيرة، كما كانت منطقة إمبابة جمهورية إسلامية لا تستطيع قوات الحكومة دخولها ولها رئيس وقوانين لا علاقة لها بالحكومة، أيضاً كانت هناك منطقة البليدة في الجزائر ومناطق أخرى، جمهورية مستقلة يحكمها من يتحدثون باسم الله ورسوله، ومع مطلع التسعينيات عرفت الجزائر الجلباب الأبيض القصير واللحى للرجال والحجاب والخمار للنساء، ومن يخرج عن هذا يكون له الويل والثبور، ولكن مع مرور الأيام اكتشف الشعب الجزائري أنه هرب من حضن القهر والظلم ممثلينً في الحكومة، إلى صدر أكثر ظلماً وقهراً وهو حضن جماعات تذبح وتقتل باسم الدين، فقدت الجزائر في سنوات الجمر مئات بل آلافاً من خيرة مثقفيها وفنانيها وأبنائها، كانت ترسل لهم الجماعات الكفن قبل أن تقتلهم، وكأن أبناء ذلك البلد مكتوب عليهم الأحزان، فمن بعد استعمار أو قل استيطان فرنسي، كان يمنع دخول الكلاب والجزائريين إلى بعض الأماكن، إلى جماعات متطرفة تقتل الأخضر واليابس وتحيل الحياة إلى جحيم، ورغم أن الموجة الجارفة من الإرهاب، قد انتهت، فإن هناك بعض الأحداث ما زالت تشهدها الجزائر بين الحين والآخر، ولكنه إرهاب موجه ضد الحكومة، ولم يعد يطال المواطنين كما كان، وإن كان الإرهاب في النهاية سيفا على رقاب كل العباد حكام ومحكومين.

الفنك الذهبي

الفنك هو طائر يعيش في صحراء الجزائر أطلقوا اسمه على مهرجانهم الخاص بالأعمال الدرامية التليفزيونية، وهذا العام كانت الدورة الخامسة له، وعلى هامش المهرجان أقام

التليفزيون ملتقى النقد الفني بين السينما والمسرح، والذي دعا إليه من مصر د. رفيق الصبان والأستاذة خيرية البشلاوي وأنا، كما شارك فيه من المغرب الناقد محمد الشويكي، ومن لبنان الناقد محمد حجازي، ومن سوريا النجمة سوزان نجم الدين، ومن لبنان الممثلة كارول لوبوس، ومن الجزائر مجموعة من أساتذة النقد في الجامعات ومخرجين وممثلين من مختلف الأجيال، كما شارك فيه بالاستماع والمناقشة طلبة من كلية الإعلام ومعهد النقد والتمثيل الجزائري، ملتقى سمح لي بأن أعيش أياماً أسمع لهموم وآمال الفن في بلاد غير بلادي، فوجدتنا كلنا في الهم سواء، فهم كفنانين يتحدثون عن نفس مشكلات فنانينا ومشاكلهم مع الصحافة والنقد، ونقادهم يتساءلون نفس أسئلتنا عن قيمة فن نراه ونسمعه أحياناً لا يليق بأحلامنا.

أجمل ما في تلك الملتقيات التي لا تقام تحت مظلة سياسية، أنها لا تحوي عقداً ولا تعقيدات السياسة، فهي تجمع بشرا يتحدثون لغة واحدة، وإن اختلفت اللهجات فهي جمعت الجزائري والمغربي اللذين تتنازع بلداهما تحت قبة جامعة الدول العربية والأمم المتحدة على الصحراء المغربية، ولكنهما حين يتجاوران يصيران إخوة ويطلقان النكات على بعضهما البعض، ونفس الشيء الذي يغرق السوري واللبناني في دروب السياسة حول السيادة يصير منبعا للنكتة والبسمة بينهم، أما أنا كمصرية فصرت رغم أني لست أكبرهم كحضن دافئ لكوني مصرية، أليست مصر بتاريخها وجغرافيتها كذلك.

أشهر نكتة

وأشهر نكتة تداولناها فرضتها ظروف كل منا السياسية، حين كنت أمر مع البعض أمام القصر الرئاسي فسألت مرافقي عن القصر والرئيس فحكى لي أن بوتفليقة لا يسكن في القصور الرئاسية ولكنه يستخدمها لدعوة الرؤساء فقط، فسألتهم أين يقيم رئيسكم إذن؟ فقالوا إنه يسكن في منزله الخاص الذي كان يسكنه قبل توليه الرئاسة فهو يسكن في بيت مكون من ثلاثة أدوار، الدوران الأولان يسكنهما إخوته، وهو يسكن الدور الأخير، وحين بدت علىّ علامات التعجب وسألت عن السيدة الأولي أشاروا لي بحكاية رئيسهم الذي ارتبط بأمه التي كانت سيدة قوية الشكيمة فلم تفسح له فرصة للزواج «قصة كثيرا ما نسمع مثلها ولكن ليس على الرؤساء» المهم أن الرئيس بوتفليقة غير متزوج ويعيش مع

إخوته في بيت عادي، ولهذا فالجزائري وجدها فرصة لكي يقول لي إنهم أكثر حظا من لأن رئيسهم بلا أبناء يأملون في وراثة حكم وثروة، وهنا صرخ اللبناني بأن مصر أكثر حظا من لبنان لأنها لديها رئيس بل ربما لديها ما بعد الرئيس، أما هم فبلد يتنامى يتسولون رئيسا.. سخرية الفنانين والمثقفين تحول حكايات السياسة لنكتة.

أنا وبوتريكة

كلما سافرت بلدا عربيا في مهرجان فني تأكدت بأن فنانينا هم ثروة مصر القومية الحقيقية، ففي المغرب مغفور للمصري خطاياه لأنه من البلد الذي أنجب عادل إمام، وفي تونس أنت تاج على الرؤوس لأنك من بلد أم كلثوم وعبد الحليم وعشرات غيرهما، أما في سوريا فالمصري معشوق لأنه من نسل أتى بعبد الناصر أولا، والأهم أنها الأرض التي أنجبت لهم سعاد حسني وليلى علوي وعشرات آخرين، وهكذا من بلد عربي إلى آخر المصري له سطوة وحظوة كرامة للفنانين، أما في الجزائر فمنذ أن وطأت قدماي أرض الجزائر ونظر رجل الجوازات على جواز سفري المصري، صاح قائلا: بوتريكة، فابتسمت متصورة أن الرجل من عشاق الكرة، ولكني اكتشفت أن أبوتريكة بلهجتنا وبوتريكة بلهجة الجزائريين هو جواز سفري الحقيقي في الجزائر، ولكم كنت في موقف أحتاج فيه للمعونة كنت أستعين باسمه لكي تفتح لي الأبواب المغلقة، فصار اسم بوتريكة هو رفيق رحلتي في أرض الجزائر خاصة حين وجدت فرحة تساوي فرحة المصريين بفوزهم بكأس الأمم الإفريقية. حب الجزائريين لبوتريكة ليس فقط لقيمة قدمه ولكن لأنه صاحب مبادرة إعلان التعاطف مع غزة، ومن العجب أنني كنت أتصور أن البعد الجغرافي بمنطق المغرب العربي عن فلسطين وأحزانها لا يمنحهم ذات المشاعر الشعبية لدينا تجاه القضية، ولكني اكتشفت أن الهم واحد لدى الشعوب مهما بعدت المسافات وبوتريكة عبّر عن أحزانهم فأحبوه.

صحافة الجزائر وحكايات مصرية

إذا أردت أن تعرف بلدا اقرأ صحافته وشاهد محطاته التليفزيونية، وفي الجزائر محطة تليفزيون واحدة بالعربية وأخرى بالفرنسية والأطباق الفضائية تغطي الأسطح والبيوت، مما يعني أن الجزائريين يشاهدون العالم أكثر مما يشاهدون تليفزيون بلدهم، والعالم يتمثل

لديهم في القنوات الفرنسية، أما عدد الصحف الصادرة لديهم يوميا فهي ٦٠ صحيفة أهمها خمس صحف تصدر بالعربية وثلاث تصدر بالفرنسية، ويوم الجمعة إجازة لا تصدر فيها الصحف، أشهر صحيفة جزائرية وأوسعها انتشارا هي صحيفة «الخبر» وقراءة سريعة في أخبارها تشعرك وكأنك في مصر مع فارق صياغة الخبر، فتلك عناوين الصحف في الجزائر، ولك الحكم دون تعليق مني «الحكومة تفشل في توقيف الإضراب العمومي» «قضاة مجلس المحاسبة يطالبون بالزيادة في الأجور» «بوتفليقة في رسالته بمناسبة ذكري ٢٤ فيفري: الدولة قامت بعدة إجراءات لرفع الأجور ودعم المواد الغذائية» «الحكم يوم ٩ مارس ضد مراسل الخبر في قضية القذف الصحفي» «تهديم ٧٣ بناية غير مرخصة».

صفحات الجريمة عناوينها «يبيعون شهاداتهم مقابل ٢٠٠ دينار.. محاكم وهران أمام ورطة تجار شهادات الزور» «مستجدات قضية الإساءة للرئيس، العدالة تدين مدير القطاع الصحي بتلمسان» ومن صفحات بريد القراء «استغاثة مواطن جزائري في ليبيا» من صفحات الرأي «الفساد يلاحق الجزائري حتى في بيت الله» (الموضوع يتناول فساد بعثة الحج الرسمي وهو نفس الفساد الذي لاحق الحجاج المصريين!!) «اغتصاب جماعي لقاصر في بني مسوس بالعاصمة» «عمرو خالد أكثر الدعاة دخلا بـ٢,٥ مليون دولار يليه الكويتي طارق سويدان بدخل مليون دولار، ثم السعودي عائض القرني بدخل ٥٣٣ ألف دولار» «أزمة حادة في الأسمنت والحديد في عنابة».

ألا يرى أي قارئ لهذه السطور أن حال الجزائر من إضراب من أجل الأجور لقضايا فساد لجريمة لأزمة أسمنت وحديد هي ذاتها عناوين الصحف المصرية؟

جريدة الفجر - مارس ٢٠٠٨

مع ماجدة الرومي حتى الصباح في الجزائر

حكاية العشاق في الحب والاشتياق هي؛ اسم أغنية جزائرية تحكي عن قصة غرام حدثت في التاريخ في مدينة قسنطين الجزائرية، وهي التي يطلقون عليها مدينة الجسور المعلقة، لأنها تتصل بمجموعة جسور على الجبال، وهي موطن المطرب العالمي أنريكو ماسياس، وللغناء في الجزائر دروب وحكايات فمنه خرجت موسيقى الراي التي يرقص عليها العالم، ومنها انطلق نجوم الراي في أوروبا الذين نعرفهم مثل الشاب خالد والشاب مامي وفضيل وآخرين لا نعرفهم متوجين كملوك على رأس أوربا مثل تكفاريناس، والراي جاءت من كلمة الرأي بالعربية وإذا كان لك رأي فأنت حر وموسيقى الراي نتاج لحركة اجتماعية للتحرر من القيم البالية، ومع موسيقى الراي يغنون باللغة العربية ولكن بلهجة أهل غرب الجزائر. ومن ألوان الغناء الأخرى في الجزائر الأمازيجي وهي لغة البربر أصل سكان الجزائر، وأشهر مطربيها هم تكفاريناس الذي يعيش في فرنسا وله شهرة عالمية، أما في الجزائر فالمطرب محمد علاوة هو الأشهر الذي يغني في أفراح ابن الوزير وابن الفقير، ثم هناك أيضا اللون الشعبي الذي له نجومه، ثم أخيرا المألوف وهو غناء باللغة العربية ولكنه بلهجة أهل الشرق.

مهما صاب المرأة من مركز أو علم أو مكانة فهي امرأة خلقها الله تبحث عن الجمال والكمال والبيت والطعام، ولأنني امرأة ككل النساء بحثت عن النساء في الجزائر، عن حكاياهن، عاداتهن، مطبخهن، اهتمامهن بالجمال، فوجدتِ أن المرأة الجزائرية تقدس يوم الخميس لأنه يوم الحمام والكوافير، وعادة ما تجد المرأة الجزائرية تجيد فن التصفيف في

البيت ولكنها تلجأ كل أسبوع إلى الحمام الشعبي الذي نعرفه باسم الحمام المغربي، والحجاب في الجزائر قبل سنوات الإرهاب للنساء المتزوجات فقط، ولكنه بعد انقضاء سنوات الجمر صار حتى على رؤوس الفتيات وإن لم يكن منتشرا كما في مصر، ولكنه في نفس الوقت لا يلاقي اختلافا اجتماعيا حوله كما هي الحال لدينا، بدليل أن أجمل صوت جزائري سمعته هو لأنيسة المحجبة الفائزة بجائزة برنامج «ألحان وشباب» وهو البرنامج التليفزيوني الموازي لبرنامج «ستار أكاديمي» اللبناني ولم يمنع الحجاب أنيسة من الغناء ولم يناقشه الجزائريون كعقبة أمام فوزها.

الشخشوخة هي؛ أشهر أكلات الجزائر وهي عجينة رقيقة تقطع قطعا صغيرة ثم توضع في صوص أحمر مع الدجاج أو اللحم والحمص، ثم هناك أيضا الكسكسي أشهر أكلات المغرب العربي عموما، وكذلك البوريك وهو يشبه السمبوسك، أما العيش في الجزائر فهو أنواع أشهرها وأشهاها هو المطلوع وهو يشبه الفطير المشلتت لدينا وإن كان أرق قليلا.

أما أشهر طبق فهو شوربة الفريك والحريرة، ومن الغريب أن الجزائر كلها تخلو من مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية، فهي المدينة الوحيدة التي زرتها حتى الآن ولم يحتلها بعد ماكدونالدز أو كنتاكي أو غيرهما من سلاسل المطاعم، حتى المقاهي فهي عادات جديدة عليهم بدأت تأخذ طريقها، فسنوات الإرهاب لم تسمح لهم بالقدرة على الجلوس في الشوارع، والشيشة وافد جديد بدأ الجزائريون تعلمه للأسف ولكن على استحياء، طبعا لم يكن ممكنا ألا أسأل عن السحر في الجزائر فالمغرب العربي لدى العرب يعني أمهر السحرة، فعرفت أن الجزانة هو اسم الساحرة أو الساحر وأشهر مناطق السحر توجد في المغرب، القريب من حدود المغرب وأن أشهر جزانة جزائرية كان يلجأ إليها حتى المسئولين كان لها محل في وسط الجزائر العاصمة، وكانت في واجهته بنورة كبيرة ولكنها اختفت منذ سنوات ولم يعرف عنها شيء، تمنيت لو أنها كانت موجودة لأذهب لها وأحيا كما في قصيدة نزار قباني قارئة الفنجان فتقول لي مقدورك أن تبقى بين الماء وبين النار ولكني لم أجدها.

ماجدة الرومي التي يعشقها الجزائريون

أحيت المطربة ماجدة الرومي حفلاً كبيرًا حيث صعدت على المسرح ترتدي فستانا

أسود أنيقا، وبقدر ما كانت عيناي وأذناي معها بقدر ما كانت عيناي ترصد الجمهور الذي كاد يحتضنها صغارا وكبارا بعيونه وتصفيقه، غنت ماجدة أغانيها القديمة والحديثة، ثم أعلنت أنها ستقدم أصواتا شابة ستغني معها ممن حصلوا على المراتب الأولى في برنامج «ألحان وشباب» وهو برنامج مشابه لستار أكاديمي ولكنه خاص بالمواهب الجزائرية فصعد عبدالله كورد إلى المسرح ليغني أغنية جزائرية لم أفهم كلماتها، ولكني تمايلت كالجمهور طربا للصوت الرائع لهذا الشاب، ثم قدمت ماجدة رجاء مزيانة لتغني معها أغنية أيضا جزائرية، وبدا أن رجاء موهبة رائعة ولكنها لا تتمتع بروح تدفع الناس لحبها، ثم أخيرا ظهرت آنيسة إحدى الفائزات بالمراكز الأولى وهي أول مطربة عربية تظهر بالحجاب رائعة الصوت والروح، وشاركت ماجدة في أغنية «كلمات»، وقد عرفت أن هذه الأصوات الرائعة ستغني قريبا في دار الأوبرا بالقاهرة، وأتمنى أن تفتح لهم القاهرة ذراعيها، وإن كنت أظن أن آنيسة المطربة المحجبة ستثير جدلا كبيرا ليس شكاً في صوتها ولكن شك في أنها سترضي هؤلاء الذين يلخصون الدين في الحجاب أو الفريق الآخر الذي يلخص قيمة الفن في العري، فلا هؤلاء ولا هؤلاء سيرضون بآنيسة وإن تمنيت أن تحتضنها القاهرة لعظمة صوتها وأدائها.

انتهى حفل ماجدة الرومي بعد الثانية عشرة، ورغم هذا لم ينصرف أحد إلا بعد آخر أغنياتها التي غنتها للبنان فرفع الجمهور أعلام لبنان والجزائر.

وبعد الحفل جمعني عشاء بعصفورة الطرب التي حكت لي أنها في طريقها لرحلة للقاهرة لتحضير شريطها الجديد مع شركة جودنيوز وعماد أديب، وأنها تفكر في طلب عماد لها بأن تغني أغنية فيلم حسن ومرقص الذي يقوم حاليا بتصويره عمر الشريف وعادل إمام، كان الحديث مع ماجدة تماما له نفس حلاوة صوتها وأدائها على المسرح، فقد حكت لي كيف تشعر بأنها تصلي وهي تغني للبنان، وأنها لا يمكن أن تأكل قبل أي حفل لأن الطعام يشعرها بثقل يتناقض مع قدسية الغناء، ولكنها عادة ما تتناول عشاءها بعد أي حفل، ولكن في القاهرة بالتحديد تعشق الحمام الذي تشمر له أكمامها، ومن عاداتها أيضا أن تأكل الشيكولاتة أو الآيس كريم قبل تسجيل أي أغنيات لأنها تعطيها طاقة تحتاجها للإجادة، وانضمت إلى جلسة العشاء الممثلة السورية سوزان نجم الدين التي

بكت لغناء ماجدة للبنان، فجمعت الجلسة بين الجزائر ممثلة في الحمراوي حبيب شوقي، رئيس التليفزيون، وآخرين وبين سوريا ولبنان ومصر والمغرب، وكأن من تفرقهم السياسية بمشاكلها وعقدها من صحراء متنازع عليها بين الجزائر والمغرب، ومن رئاسة حائرة بين سوريا ولبنان، وبين مصر التي ما عادت تعرف طريقها كل هذه المشاكل يذيبها حديث الفن والصوت الجميل.

كلمة أخيرة: أتعجب أن منتجينا السينمائيين والتجوم يذهبون للتصوير في أوربا وأمريكا والهند والسند ولا يذهبون إلى الجزائر أو المغرب أو بلاد عربية جميلة فهل صناع السينما مثل القرع يمدوا لبره حتى جنوب أفريقيا؟!

جريدة الفجر - مارس ٢٠٠٨

obeikan.com

نغمات الراي في مهرجان وهران

الباهية أو البهية وهران هي؛ المدينة الجزائرية التي احتضنت فاعليات المهرجان الدولي للفيلم العربي في دورته الثانية ، وكانت الرحلة من القاهرة إلى وهران قد امتدت إلى ثماني ساعات، وكالعادة كان الوفد المصري للمهرجان هو أكبر وفد بين الوفود العربية، فقد صاحب الوفد عدد كبير من الإعلاميين إضافة إلى الفنانين، وكان منهم محمود عبد العزيز وإلهام شاهين وخالد زكي وداليا مصطفى أبطال فيلم «طباخ الرئس» وباسم السمرة الوحيد الذي حضر عن فيلم «الجزيرة» وكذلك حضر شريف سلامة ومنال سلامة والمخرج مجدي أحمد علي وسعيد حامد وعلي أبوشادي والكاتبة كوثر هيكل، وفي الختام حضر محمود ياسين.

وما بين العدد الكبير والمشاركة والتكريم في البداية لمحمود عبد العزيز، وفي الختام لمحمود ياسين، بدت السينما المصرية وكأنها درة تاج السينما العربية التي تحتفي بها وهران.

وبقدر ما تبدو المهرجانات السينمائية في الأصل حكاية أفلام إلا أنها أيضا حكاية مدن وبشر والتقاء ثقافات تتجاور بالكاميرا.

أقدم ما في وهران هو قيمة جبلها الذي يقع فيه حصن سانتا كروز، وهو على ارتفاع ٣٦٥ مترا على سطح البحر، وفيه توجد كنيسة وتمثال سانتاماريا والتي تعود إلى القرن الـ١٦ وإن كان التمثال الموجود تقليدا للأصلي الذي نقله الإسبان لبلادهم، ولهذه الكنيسة قصة تروى، فقد ضرب الطاعون البلاد وأجهز على من فيها، ونذر البعض بناء كنيسة للقديسة ماريا لو انزاح البلاء من البلاد، وبالفعل انحسر الطاعون وبنوا الكنيسة

التي تقف على قمة الجبل حتى الآن.

وقد كتب ألبير كامي روايته الشهيرة «الطاعون» عن هذه الحادثة. وكنيسة القديسة ماريا مجرد أثر فهي مكان لا تقام فيه الصلوات.. وإلى جوار الكنيسة على قمة جبل سانتا كروز يقع مقام سيدي عبدالقادر أحد أولياء الله الصالحين والذي يتغنى به مطربو الراي، والصعود إلى الجبل له وسيلتان إما التلفريك أو السيارات وهي تجربة مرعبة بحق، وافق عليها البعض ورفضها البعض، خاصة الفنان خالد زكي الذي يصاب بخوف من الأماكن المرتفعة.

حكاية مهرجان

وشاهين لم يكن غائبا عن هذه الدورة فقد قدموا له تحية ودعاء في الافتتاح، فشاهين بالنسبة للجزائريين ليس فقط صانع الفن الجزائري، وشارك أحمد راشدي في إنتاج العصفور وعودة الابن الضال، وبالتالى لم تكن السينما المصرية فقط بنجومها وأفلامها هي درة المهرجان، ولكن كانت صورة شاهين حاضرة على المسرح وفي قلوب الجزائريين حتى إن رئيس المهرجان حمراوي حبيب شوقي قال لي: إن الرئيس الجزائري بوتفليقة اتصل بمكتب شاهين في القاهرة ليبلغهم أن الجزائر شعبا وقيادة في خدمة شاهين، وإن كانت مصر تحتضن شاهين فإن الجزائر تحتضنه في قلبها وتريد أن تقدم أي مساعدة مطلوبة.

مهرجان وهران يقام برعاية رئاسية من بوتفليقة وهذا بالتأكيد يعطيه قوة، ففي العالم العربي حين يرعي الرؤساء حدثا تفتح أمامه كل الأبواب، ولكن الحق أن الأمر ليس كله في حالة هذا المهرجان رعاية الرئيس السياسي، فهناك رئيس المهرجان حمراوي حبيب شوقي الذي يترأس التليفزيون الجزائري، وكان وزيرا سابقا وهو شعلة من النشاط والانضباط جعلني رغما عني أقارن بينه وبين رئيس مهرجان القاهرة عزت أبوعوف، وللأسف كانت المقارنة ظالمة للأخير.

وقد أقام المهرجان هذا العام ندوة جمعت رؤساء المهرجانات العربية، وتمت دعوة أبوعوف ولكنه لم يعتذر ولم يرد على الدعوة، فهو يشارك حاليا في أغلب المسلسلات خاصة أنه ممثل لا يرفض دورا لهذا فقد التمست له العذر.

مازالت الجزائر رغم مرور نحو نصف قرن على التحرر تحمل لمحة من حزن على موت

مليون ونصف المليون شهيد، مازال كل ما في الجزائر يذكرك بشهدائها سواء في حربهم ضد فرنسا أو في حربهم ضد الإرهاب الذي ضربهم في التسعينيات قبل أن يكتوي العالم كله به، فالجزائر من خلال مخرجها أحمد راشدي تنتج فيلما ضخما عن الشهيد مصطفى بن بولعيد، أحد شهداء الثورة الذي يطلقون اسمه على واحد من أكبر شوارع عاصمتها، وقد عُرض في الافتتاح أجزاء من «ماكينج» الفيلم في مسرح أوبرا وهران الذي يحمل اسم الكاتب المسرحي عبد القادر علولة، الذي اغتاله الإرهاب عام ١٩٩٤، مع مجموعة أخرى من المثقفين والفنانين الذين كانوا أقطاب الإرهاب يرسلون لهم أكفانهم، إشارة إلى قرار الاغتيال، وما بين الكلمات الملقاة في الافتتاح وأجزاء الفيلم الذي عُرض واسم المسرح الذي تقام فيه مراسم الاحتفال، تشعر بأنك في بلد لم يندمل جرحه بعد ولم ينس من ماتوا دفاعا عن حريته أو حرية الكلمة.

وقد لا تكون مجرد أيام كافية لتعرف طبيعة شعب ولكن بالتأكيد هناك ظواهر تستطيع أن تلمحها في تصرفات الشعوب تكفيك لأن تكوِّن صورة أو جزءا من صورة عن الشعوب، فقد كنت قبل زيارتي للجزائر أسمع كثيرا عن غلظة أبناء هذا البلد، كما يقال مثلا عن المصريين إنهم خفيفو الظل، رغم أننا فقدنا كثيرا من هذه الصفة، ولكني لم أجد غلظة في أبناء الجزائر، فعلى العكس وجدت شعبا محبا لكل غريب، الكلمة الأثيرة لديه «ما في مشكلة»، وأكثر ما يؤكد وجهة نظري لقاء الجمهور بنجومه الأثيرين، فهم لا يتحرشون بالنجوم، قد يطلبون التصوير معهم ومصافحتهم لكن دون تدافع أو أذى أو إثارة، فقد ذهب محمود عبد العزيز مثلا لمصافحة الجمهور المصطف على الجانبين في الافتتاح ولم يحدث شيء يعكر صفو لقاء النجم مع محبيه.

الدول العربية حكايات أفلامها قد تتفاوت في المستوى الفني، وقد تختلف لهجاتها، ولكن دائما ما تتفق في همومها، فكلنا في الهم سواء.. والسينما العربية خير دليل.

جريدة الفجر - يوليو ٢٠٠٨

حكايات من بلاد تركب الأفيال والتوك توك والصواريخ

تركت مصر فى فترة تموج فيها بالحركة والثورة والغضب من كل شيء ،والأهم انى تركتها وهى مختلفة حول المستقبل فلا الشعب اتفق على شيء ولا حكامه الحاليون أعطوا للشعب المختلف خارطة طريق محددة.

تركت كل هذا وأكثر وقررت السفر إلى بلاد تركب الأفيال وتضم أرضها رفات غاندى أحد حكماء البشرية وعظمائها والذى استطاع ان يغير بلاده والعالم معها دون أن يرفع سلاح أو يشن حرباً،كان مجرد رجل نصف عار ضعيف البنيان ولكنه هز أركان إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس وطردها من بلاده بغير عودة.

كنت أمنى نفسى برحلة صفاء للنفس فى بلاد اليوجا بعد ان أتعبتنى بلادى فى خنوعها أغلب سنوات عمرى وأتعبتنى أيضا من ثورتها الوليدة التى تاهت كثير من معالمها.

لم تكن تلك أول زيارة لى للهند ولكنى حظيت بزيارتها قبل عقد من الزمان ولذا كنت أنتظر بشذة الزيارة الثانية لأعرف ماذا فعل الهنود فى عشر سنوات أو يزيد مقابل ما فعله المصريون ....ولعجبى فكما وجدت كثيرمن نقاط الالتقاء وجدت كثير من نقاط الاختلاف الجوهرية جداً.

١ -يا وابور قولى رايح على فين:

تحدد الإحصاءات أن أعلى نسبة عالمية فى حوادث القطارات تقع فى الهند ومصر ومن العجب أنهما أول دولتان تعرفان السكك الحديدية،لذا قررت أن تبدأ أول جولاتى فى بلاد طاغور و غاندى

بالقطار من دلهى حيث وصلت ،إلى ولاية أجرا محطتى الأولى فى هذه الرحلة،وكنت قبل وصولى إلى محطة القطار أُمنى نفسى برحلة فى قطار الشرق السريع كما صورته لنا السينما فى أفلام مأخوذة عن روايات أجاثا كريستى،تصورت ان تجربة ركوب قطار فى الهند عبر ولاياتها المختلفة، بغض النظر عن مخاطرها، ستكون مصدر غموض وإلهام خاصة ان القطارات فى شبه القارة الهندية هى وسيلة مواصلات رئيسية أكثر كثيرا من مصر. ولكن كل أحلامى وخيالاتى المبنية على السينما تحطمت حين رأيت المحطة والقطار الذى سأستقله.

فبرغم انه درجة أولى إلا انه يشبه بل أقل فقراً من القطار القشاش فى مصر مع اختلاف وحيد وهو وجود مراوح قيل لى أنها لا تعمل دائما. فلو قُدرلك أن تستقل قطاراً فى الهند أعرف ان عجلة الزمن ستعود بك إلى الوراء فى بلاد تعد أحد القوى النووية فى العالم،وسيدة صناعة السوفت وير،ومقدر لأسطولها البحرى فى عام ٢٠١٢ ان يكون أقوى أسطول فى العالم وصفات أخرى كثيرة عظيمة.ولكن ابتسم فأنت فى الهند أم العجب كما غنت لها سعاد حسنى وما كذبت.

الهند أم العجب فهى أم طاغور وغاندى، وأم الفقراء الأكثر فى العالم والأثرياء الأكثر أيضاً فى العالم ،هى بلاد تركب الأفيال والتكتك،كما كما تركب الصواريخ وتصنع القنبلة النووية وتمتلك من ٨٠ إلى ١٠٠ رأس نووية.

الهند أم العجب فهى التى تضم أراضيها بليون و٢١٥ مليون نسمة والوحيدة التى يتحدث سكانها أكثر من ٢٤٠ لغة مختلفة تماماً ومئات اللهجات،وتضم عشرات الديانات على رأسهم الهندوسية التى يدين بها ٨٠٪ من سكانها يليها الإسلام الذى يضم ١٠٪ من السكان،ثم ديانات أخرى كثيرة ما انزل الله بها من سلطان.

الهند أم العجب فهى الدولة البرلمانية الرئاسية التى تمارس ديمقراطيتها كل خمس سنوات،رئيسها مجرد وجه برتوكولى وحاكمها الفعلى هو رئيس الوزراء الذى يأتى بالانتخاب من خلال البرلمان. ومن عجب العجب ان تكون تلك الديمقراطية خاصة بالفقراء فقط فهم، كما بحثت فى رحلتى، الذين يهتموا بالإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات. أما أغلب الطبقة المتوسطة والعليا عازفة عن المشاركة فى الديمقراطية، فالشباب الهندى

الذى يمثل ٥٠٪من السكان، كما قال لى الكثير منهم، لا يملك بطاقة انتخابية لأنه ناقم على ارتفاع نسبة الفساد ويرى أغلبهم أن الإنتخابات تعتمد على رشوة الفقراء وليس على أساس صحيح فى الاختيار.وكنت على طول الطريق أشاهد إعلانات بدت لى انها دعاية انتخابية ففسرها لى مرافقى الهندى بأنها تهنئة من نواب البرلمان لمسلمى الهند بمناسبة عيد الفطر وهى دعاية انتخابية فى ذات الوقت،وكنت أمنى نفسى بأنى سأبتعد قدر المستطاع عن مصر وأحاديثها عن الفساد السياسى والمالى الضارب فى أصولها ، والاعتصامات والإضرابات والانتخابات وبرامج المساء والسهرة المثيرة التى ترفع الضغط ولكن يبدو أن القدر لم يكن متفقاً معى فى طلب الراحة فقد وجدت فى أقصى بلاد الشرق نفس ما تركته فى مصر ولكن بالهندى.

(٢)

تركت القاهرة هاربة من ثورتها التى أسعدتنى ثم اتعبتنى، ومن أحاديث الفساد الذى طال كل شيىء فى مصر، ومن برامج التوك شو وضيوفها ومذيعيها، ومن صحافتها التى تمنح البطولة للمصدر المجهول...وتصورت انى ذاهبة إلى بلاد الحكمة واليوجا والديمقراطية العتيدة الراسخة، وللحق فقد وجدت كل ذلك وأكثر ولكنى وجدت أيضا ما هربت منه وكأنه قدر مقدر لى لا مهرب منه.

محاكمات وفساد وضحايا وعمار على حسن وحمزاوى لكن بالهندى:

واجهت أول ما واجهت فى الهند أحاديث فساد سياسى ومالى وبعض إضرابات فى الطرقات وبرامج توك شو ليلة على مئات المحطات التلفزيونية الهندية الخاصة والقومية والغريب والعجيب ان ضيوف هذه البرامج نسخة متشابهة تماماً مع الضيوف المصريين المعتادين الذين هربت منهم فها هو عمار على حسن الهندى، أى والله،بشحمه ولحمه وبحة صوته فقط متحدثا بالهندية وها هو أيضا عمرو حمزاوى وتهانى الجبالى ولكن بالبندى أى النقطة الحمراء التى يضعها الهنود على جباههم ،وصدق أو لا تصدق لكن والله صدق، إن اختلافاتهم على الهواء وصراخهم فى وجوه بعض متطابقة لما نراه على شاشاتنا تماماً.

كانت أهم الموضوعات المثارة فى الإعلام بشكل كبير جداً هما قضية مودى حاكم

منطقة جوجارات ورودلف إلمر البانكير السويسرى الذى أمد ويكيليكس بمستندات تدين ٤٠٠ شخصية شهيرة هندية تهرب أموالها إلى سويسرا.

أما الحكاية الأولى فهى تخص نارندرا مودى أحد مشاهير السياسة الهندية وحاكم منطقة جوجارات الذى يواجه إتهام بالتآمر لقتل عشرات المسلمين عام ٢٠٠٨ فى حادث إرهابى ثأرا لحادث سابق لعدد من الهندوس، وحين ترددت شائعات عن ضلوع الحاكم فى التحرّيض على الثأر تم تكوين لجنة تحقيق خاصة لمتابعة ملابسات الحادث وإعلان النتيجة رغم ان اللجنة لم تصل إلى نتيجة مؤكدة لضلوع الحاكم إلا أن أسر الضحايا رفعوا قضية فى المحكمة ضده وآخرين ،نصّيب أن أترك محاكمات الحاكم فى مصر لأواجه محاكمات حاكم فى الهند بنفس التهمة ولكن مع فارق واحد كبير فحاكم الهند مودى أعلن يوم وصولى انه سيصوم ثلاث أيام من أجل ان يعم السلام المنطقة التى يحكمها أما الحاكم المصرى ما صام إلا عن الكلام .

أما القصة الثانية التى حصلت على البطولة الإعلامية فى الهند فهى تخص رودلف إلمر موظف البنك السويسرى الذى فضح النظام المصرفى السويسرى ومنح آسانج وموقع ويكيليكس مستندات تدين عدد من أثرياء العالم ومشاهيره من السياسيين خاصة فى دول العالم الثالث .ظهر إلمر فى خبطة إعلامية على الهواء مباشرة فى أحد المحطات الخاصة الهندية بعد الإفراج عنه بساعات حيث تم سجنه من ٢٠٠٥ حتى يوم ظهوره.وقد كان السؤال الرئيسى حول أسماء ال٤٠٠ شخصية هندية التى أعلن انها ضالعة فى تهريب وغسل أموال،ولم يعلن إلمر عن الأسماء لأنه مهدد بالسجن والانتقام، ولكنه أعلن انهم سياسيون وبعض مشاهير رياضة الكريكت ونجوم سينما ورجال أعمال،فضيحة تضع نصل السكين على رقاب المشاهير ولا أحد يستطيع تحديد متى تنفجر.

نعم فى الهند يوجد فساد سياسى ومالى ورشوة قد تبدأ من أصغر عسكرى مرور لرؤوس كبرى ولكنه بالتأكيد مختلف عن الفساد المصرى لأن ديمقراطية الهند لا تسمح له بالإستمرار سوى خمس سنوات ثم تفضحه على رؤوس الأشهاد، عندهم فساد وعندنا فساد ولكن إلى جوار فساد بعضهم هناك إنجازات فى العلم ومجال التعليم،وإكتفاء ذاتى فى لقمة العيش لشعبهم، وصناعة وطنية تضع أسمهم على قوائم المنافسة العالمية، وقنبلة

نووية وأشياء أخرى قد تغفر أو على الأقل تخفف كثيراً من حدة فساد بعضهم.

(٣)

ترتبط الهند فى عقول عامة المصريين بالسارى والكارى وأميتاب باتشان أى سينما بوليوود وهى بالفعل كل ذلك وأكثر بكثير. الهند هى حضارة ضاربة فى التاريخ لها موسيقى شعر طاغور وحكمة غاندى وعبقرية كليلة ودمنة والأهم من كل ذلك مستقبل يخططون له.

التوك توك والموتوسيكل سمعة طيبة فى الهند أفسدها المصريون:

ربما سمحت لى ظروفى بسبب زيارة سابقة للهند قبل عقد من الزمان ان اجرى مقارنة بين كيف كانت وماذا أصبحت. قبل عقد من الزمان كانت العاصمة دلهى وأكبر مدنها مومباى من أكثر لمدن تلوثاً فى العالم حتى اننى كمصرية فى ذلك الوقت حمدت الله على درجة التلوث التى نعيش فيها مقارنة بالهند،ولكن بعد عشر سنوات لم يعد تلوث الهند كما كان بل صارت مدن الهند تتمتع بجو نظيف مقارنة بالقاهرة فهى تستخدم الغاز الطبيعى فى أغلب المركبات ومنعت التدخين حتى فى شوارعها ولكن تظل القمامة وأحوال الطرق أفضل فى مصر الحمد لله.فى زيارتى الأولى حين عدت للقاهرة شعرت أنها فارغة من السكان طبعا تأثراً بالزحمة فى دلهى ومومباى،ولكن فى زيارتى الثانية لم أشعر بإختلاف كبير بين زحام عاصمتهم وزحام عاصمتنا وهم فى البليون ونحن مازلنا نلعب فى الملايين.

فى الهند إستطاعوا ان يوظفوا الريكشا وهو إختراع هندى أو التوك توك بالمصرى والموتوسيكل لقهر الزحام.فشركة باجاج أكبر منتج فى العالم للمركبات ذات الثلاث عجلات شركة هندية وهى رابع أكبر مصنع فى العالم للدراجات البخارية،وقد أتيحت لى فرصة زيارتها ،صراحة حاجة تشرح القلب،ينتجون ١٠٠٠٠٠ موتوسيكل و٢٠٠٠٠٠ توك توك شهرياً ويصدرون ٣٥٪ من إنتاجهم للخارج، وعلى أبواب مصانعهم عبارة تقول: «نحن فخورون ببلدنا،ونعمل من أجل أن تفخر بنا بلدنا».

فى الوقت الذى أساء فيه المصريون للتوك توك وأذوا سمعته وهو برىء فهو وسيلة إنتقال آمنة رخيصة والأهم انه يسير لديهم بالغاز الطبيعى لذا فهو صديق للبيئة،أما عندنا فهو وسيلة بلطجة مرورية وسرقات وجرائم وتلوث رغم منفعته لكثير من الفقراء

والذين تحرمهم الدولة من خدمة المواصلات العامة.

العيب فينا إذاً وفى سوء الإستخدام وليس فى الوسيلة التى تطاردها الدولة وكثير منا لأننا لا ندرك معنى إحتياج كل إنسان لوسيلة مواصلات يبلغ بها بيته وأيضاً فرصة عمل قد توفر حياة كريمة لعدة أسر تعيش على دخل التوك توك. لا يمكن ان تستمر الحياة فى القاهرة والمدن الكبرى كما هى فقد تحولت لجحيم لا يطاق، وعلينا أن نعيد منظومة شوارعنا وعقولنا التى ترى ان السيارة وحدها هى الوسيلة الآمنة والمعيار للتقييم الإجتماعى والطبقى فى مصر.على الدولة والمجتمع والإعلام ان يعيد صياغة العقل المصرى على الأقل لدى الشباب وأن إمتلاك موتوسيكل أفضل من سيارة ولكن هذا بإحتياج لعمل كثير وتحدٍ أكبر فهل نحن قادرون عليه من أجل أن نستطيع الحياة فى مدننا؟؟

التعليم كالماء والهواء طوق نجاة:

بدأت الهند منذ خمس سنوات فقط فى توجيه أكبر جزء من ميزانيتها للتعليم ولذا فكل الناس فى الهند فقراء وأغنياء ،فى الحضر والريف يرسلون ابنائهم للمدارس والجامعات.كل مدينة وكل قرية أو حتى ضاحية لديها مدارس وجامعة،ومن العجب العجاب أن عدد التلاميذ فى الفصول الهندية لا يزيد عن ٣٠ طالباًوتكلفة الدراسة فى أغلى مدرسة دولية تصل إلى ألفين دولار أما المتوسطة الحال فتبدأ من ٥٠٠ دولار ولا وجود لكلمة دروس خصوصية وبعد هذه الأرقام لا يسعنى إلا أن الطم الخدود على مدارسنا عدداً وعتاداً. الهند عرفت قيمة التعليم فدفعت شعبها له وفى خمس سنوات صار الحال غير الحال،فمتى تعرف مصر المليونية تعليم الهند المليارية؟!

شعب فقير..شعب غنى..شعب واحد:

لست أملك إحصاءات عن مستوى الفقر أو الغنى فى الهند عما قبل ولكنى أملك عيناً رأت هذه البلاد سابقاً وحالياً،منذ أكثر من عشر سنوات حين تسير فى شوارع الهند تفاجئك مظاهر الفقر بل الفاقة إلى درجة لا تشبه أحداً فى العالم ،فالشحاتين بالآلاف وحذارى ان تمنح أحدهم روبية واحدة وإلا سيخرجوا إليك من كل فج عميق كالجراد المنتشر، والذين يسكنون الشوارع أيضا فى كل مكان حتى حول فنادقها الفاخرة

المبهرة،مظاهر الفقر فى الهند سابقاً كانت توجع القلب والمعدة والعقل ويقابلها ثراء فاحش يذكرك بحكايات ألف ليلة وليلة،أما فى الهند الحالية فقد قلت جدا هذه المظاهر مقارنة بالماضى القريب وإن ظل الثراء كما هو ثراء فاحش.

عندنا كما عندهم فقراء حتى الموت وأغنياء حتى الخلود ولكن فقرهم وثرائهم لا فاصل بينه فهم يتعايشون دون فواصل،فليس هناك منطقة خاصة بالأغنياء لا يستطيع ان يقطنها سكان الشوارع أو الشحاذون وليس هناك أماكن للفقراء لا يدخلها الأغنياء خوفاً،فلا هم يخجلون من فقرهم فيخفوه ولا يخافون على ثرائهم فيقيمون حوله الأسوار، أما نحن فى مصر فللفقراء عالمهم المخفى عن العيون وكأننا كأمة نخجل منه وهو واقع ، والأغنياء إجتمعوا فيما يشبه الجيتوهات تلتف حولها الأسوار تبتعد يوماً بعد يوم عن المدينة فكدنا أن نصبح شعبين أما فى الهند فهم أمة واحدة فيها الفقير جداً والغنى جداً وما بينهما.

جريدة اليوم السابع أكتوبر ٢٠١١